فقه الدعوة إلى الله تعالى

فى ضوء

السيرة النبوية الشريفة

للدكتور / سعيد محمد اسماعيل الصاوى

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلاميه .. بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاه والسلام على أشرف الدعاة سيدنا محمد بن عبدالله .

وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

أما بعد :-

فإن المقدمة تتضمن ***أمرين هما*** :.

أ :- التعريف بعنوان البحث .

ب :- علاقة الدعوة بالسيرة النبوية الشريفة .

أ :- *التعريف بعنوان البحث .*

فقه الدعوة إلى الله تعالى فى ضوء السيرة النبوية الشريفة .

١ :- المراد بالفقة :-

الفقه فى اللغة : العلم بالشيء . والفهم له . والفطنة فيه . وحسن الإدراك .

وغلب على علم الدين لشرفه . يقال :. فقه بالكسر كفرح : إذا أحسن الفهم والإدراك وفقه بالفتح كذهب : إذا سبق غيره إلى الفهم .

وفقه بالضم ككرم : إذا صار الفهم له سجية .

والفقيه العالم الفطن والعالم بأصول الشريعة وأحكامها .

واستعمل فيمن يقرأ القرآن ويعلمه - ج - فقهاء (١)

والفقيه كذلك : هو من يحسن فهم الأمور وإدراكها حتى يسبق غيره إلى ذلك بغريزة وسجية :

---

(١) القاموس المحيط فصل القاف باب الهاء جـ ٤ ص ٢٩٨ والمعجم الوسيط ص ٦٩٨ ومختار الصحاح ص ٥٠٩

٢ - المراد بالدعوة :-

الدعوة فى اللغة : وردت بمعان كثيرة من أهمها :.

النداء والطلب . والصيحة . والتجمع للمشاركة فى شىء . ففى القاموس المحيط :. الدعوة هى النداء للمشاركة فى شىء وهى التجمع على شىء .فدعا الرجل : ناداه . وتداعى القوم : دعا بعضهم بعضا حتى يجتمعوا - (١)

فالداعية هو من يحاول استمالة الغير إليه . وإقناعه بدعوته للإجتما ع عليها .

٣ - المراد بفقه الدعوة :-

هو حسن فهم الدعوة . وإدراكها من مصادرها الأساسية . واستخلاص الدروس والعبر منها . وعرضها على المدعو بواقعية . مراعى فيها ظروف الإنسان والزمان والمكان .

٤ - السيرة النبوية الشريفة :-

تطلق السيرة فى اللغة على :. السنه والطريقة والهيئة (٢) التى يكون عليها الإنسان وغيره .

والسيرة النبوية . وكتب السير مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة . وأدخل فيهاالغزوات وغير ذلك . ويقال: قرأت سيرة فلان: تاريخ حياته - جمع - سير (٣)

وعلى هذا: فالسيرة النبو ية الشريفة تعنى :-

تاريخ حياة النبى ﷺ وبيان طريقتة فيها منذ مولده حتى وفاته ﷺ

ب :. علاقة الدعوة بالسيرة

إن الدعوة لها جانبان :.

(١) باب القاموس المحيط الواو فصل الدال جـ٤ ص ٣٢٨

(٢) السابق باب الراء فصل السين جـ٢ ص ٥٤

(٣) المعجم الوسيط ص ٤٦٧

أ ـ جانب تاريخى .

ب ـ جانب فنى يرتبط بالحكمة فى الدعوة .

والحق :- أنه يجب دراسة الدعوة من جميع الجوانب وخاصة الجانب الثانى أى من حيث متطلباتها فى كل عصر ومايحمله من تيارات فكرية يجب التصدى لها

والدعوة من هذا الجانب : هى علم استبطان الأحداث التاريجية .

يستخرج أهدافها ومراميها . وأسبابها . وعللها وأحكامها وثمارها .

وهو علم : يخدم الدين ويعطى الحل والعلاج لكل مشكلة تطرأ فى أى زمان وأى مكان . وعلى هذا . فليست كلمة ـ دعوة ـ مرادفة لكلمة ـ سيرة ـ ولا تنطبق مسائلها انطباقاً كلياً . ما كان هناك داع إلى هذا العلم . ولوجب بالضرورة الاكتفاء بعلم السيرة .

ومن هنا يمكن القول :ـ

أن علم السيرة يختص بالأحداث التاريخية فى سببها ومجرياتها وتاريخها .

أما علم الدعوة : فأنه يختص بالحكمة من وراء الأحداث التاريخية والاستفادة بها فى مجال الدعوة إلى الإسلام ونشره فى كل زمان ومكان .

والرد على ما يثار ضد الإسلام من مزاعم وشبهات .

أمثلة :ـ

غزوة بدر :ـ

نرى علم السيرة يتحدث فيها عن ناحية : أسبابها . والاستعداد لها . وبيان عدد المسلمين والكفار . وسير المعركة . ونتائجها العسكرية . أو الحربية .

أما علم الدعوة : يستبطن هذه الأحداث ويستكنها . وهذا ما تراه فى حديث

القرآن الكريم عنها .

وقد تحدث عن الغزوة من حيث :ـ

نزول الملائكة استجابة لدعاء النبى ﷺ

والتدبير الإلهى بتهيئة الجو الزمانى والمكانى والنفسى للمسلمين . فقد أنزل الله تعالى الملائكة مسومين أو مردفين . كما أنزل نصراً ثبت به أقدام المومنين . وزلزل به أقدام الكافرين . وأرى الله المؤمنين الكفار قلة . وأرى الكفار المؤمنين قلة :ـ **(وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا . ويقللكم فى أعينهم . ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . وإلى الله ترجع الأمور)** (١) فالقرآن هنا لم يتحدث عن اسباب المعركة . ولا عن سيرها ولا عن عدد الجيش ولا عن نتائج المعركة وإنما تحدث عن تقرير وعد الله المؤمنين بالنصر المبين .

ثم نرى القرآن الكريم فى النهاية ـ رغم هذا المد وهذه القدرة الهائلة ـ لخص الحكمة فى ذلك قائلاً :ـ **(ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ـ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين)** . (٢)

الواضح أن ملكاً واحداً كان كفيلاً بأن يطيح برءوس الكفار فى لحظة واحدة . ولكن عناية الله تعالى . لم ترد ذلك . لحكمة تتصل بمهمة الرسول ﷺ فى رسالته . وبحكمة الله تعالى فى عنايته .

فمن ناحية مهمة النبى ﷺ : كان عدد القتلى متلائماً مع رحمته ورفقه ﷺ . إذ لو أبيد الكفار ما كان ﷺ : رحمة بل نقمة . وما كان رحيما بل منتقماً جباراً ومن ناحية التقدير الإلهى : فإن الله تعالى لم يرد أن يستأصل أعداء الدعوة . وإنما قطع طرفاً ـ المتكبرين والرؤساء ـ من المشركين ليفتح الطريق

(١) سورة الأنفال اية / ٤٤

(٢) سورة آل عمران آية /١٢٧

أمام الضعفاء والذين غلبوا على أمرهم بظلم المتكبرين لهم . فأنت ترى أن الجوانب التاريخية . تختلف عن إستكناه واستبطان الأشياء . أو ظواهر الأحداث . وإذا تحدث علم السيرة ظواهر الأحداث . فإن القرآن الكريم قد تحدث عن بواطنها وغاياتها .

ومثل هذه المعانى الدقيقة . والاستفادة منها فى خدمة الدين .

وتربية النفوس . هى مهمة علم الدعوة وخاصة من جانبه الفقهى .

والإنسان لكى يفهم أى دعوة تمام الفهم . ويعلمها حق العلم .

يلزمه أمور لابد منها :-

أولاً :- أن يدرس البيئة التى بدأت فيها الدعوة . دراسة شاملة من حيث :- المكان - والزمان - والإنسان - ومايدور فيها من تيارات فكرية أو ثقافية .....الخ

ثانياً : - أن يدرس حال الداعى صاحب الدعوة . من حيث : ذاته وصفاته وأخلاقه .....الخ

ثالثاً :- أن يدرس المراحل التى مرت بها الدعوة . والحكمة منها لذا قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث وهى كما يلى :-

المبحث الأول :

البيئة التى ظهرت فيها الدعوة الإسلامية

مكانتها فى الناحية الدينية :-

إن البيئة التى ظهرت فيها الدعوة الإسلامية هى الجزيرة العربية .

وهى التى حرص ﷺ . أن تطهر من رجس الأوثان وكل من يعبد إليها عير الله تعالى .بقول ﷺ -(**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**) (١) - وقوله

لبحارى باب الجريه ومسلم باب الوصية

- (لأخرجن اليهـود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أترك فيها إلا مسلماً) . (١)

وهى درج كثير من الرسل الكرام على أرضها . أمثال هود . وصالح . وشعيب . وإبراهيم . وإسماعيل عليهم السلام . وبعثوا فى أهلها . وكان أمين الوحى جبريل عليه السلام . ينزل بالوحى يحمل التكليف الإلهى لهؤلاء الرسل لدعوة الناس إلى دين الله .

وعلى أرض الجزيرة العربية .

قام الرسل جميعاً يدعون إلى عقيدة واحدة - اعبدوا الله مالكم من إله غيرة - ويدعون إلى إخضاع الحياة كلها لنظام الله . وشرعه . فاستجاب من استجاب . وأعرض من أعرض .

وهلك من هلك عن البيئة . وحيا من حياعن بيئة .

وهذه الأرض الطبية قد اختصها الله تعالى . بفضله وكرمه دون بقاع الأرض جميعا .

فجعل فيها : حرمه الآمن . وبيته العتيق . ومكه المكرمة . أحب بقاع الأرض إلى الله . والتى جعلها الله تعالى مناسك العبادة . وأوجب عليهم الإتيان إليها من القرب ومن البعد . ومن كل فج عميق . فلا يدخلوها إلا متواضعين متخشعين متذللين . كاشفى رؤوسهم . متجردين عن لباس أهل الدنيا وجعلها حرماً أمناً . لايسفك فيه دم . ولا تعضد به شجرة ولا ينفرد له صيد ولا يختلى خلاه ولاتلتقط لقطته إلا للتعريف وجعل الله سبحانه وتعالى قصدة مكفراً لما سلف من الذنوب . ماحياً للأوزار حاطاً للخطايا . كما بين ذلك سيدنا محمد

---

(١) الترمذى كتاب السير باب إخراج اليهود والنصارى من جريرة العرب جـ٤ ص١٣٤

عليه الصلاة والسلام :- من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ، ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة . (١)

ومن لوزام هذا كله ومتماته أن تكون هذه البقعة المباركة جهداً للدعوة

الإسلامية التى هى ملة أبينا إبراهيم وأن تكون بعثة خاتم الأنبياء ومولده فيها . كيف لا . وهو من نسل إبراهيم عليه السلام . (٢)

مكانتها من الناحية الجغرافية :

تعتبر الجزيرة العربية بموقعها الجغرافى : سيرة العالم لأنها تقع فى وسطه وتتصل بكل أجزائه وأقاليمه . ففى شرقها توجد الدولة الفارسية على الخليج ودجلة والفرات وفى شمالها توجد الدولة الرومانية فى بلاد الشام وفلسطين وفى غربها توجد مصر والحبشة على البحر الأحمر وفى جنوبها توجد الهند وغيرها على المحيط الهندى وخليج عدن . وقد ساعد على التغلب على عوائقها من مرتفعات وبحار . أن العربى كان على خبر كامل بشعابها وطرق مواصلاتها . فكثيراً ما جابها راكباً إبله فى قوافل التجارة وأسواق العرب . وأيضاً فلقد ركب العربى البحرإلى الهند والحبشة . ولذلك لم تقف هذه الموانع الطبيعية أمام إرادة العربى إذا أراد أن يخرج منها إلى العالم . ومن هنا سهل تبليغ الدعوة من مكة إلى العالم بإرسال الرسل والكتب واستقبال الوفود . وبعث الجيوش إلى كل مكان من غير جهد أو عناء (٣)

كما أحيطت الجزيرة العربية بحواجز منيعة . إذ وجدت المياه فى ثلاث من جهاتها . والجهة الرابعة كانت مرتفعات فى الشمال

---

(١) البخارى ومسلم . كتاب الحج

(٢) فقه السيرة . البوطى ص ٣٦

(٣) الدعوة الإسلامية . د . أحمد غلوش ص٨٢

وهى حواجز تحتاج فى عبورها إلى تدريب وتمرس شاق ما تعلمها العربى إلالحاجته ، أما غيره فليس له إلى ذلك حاجة وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد قوى أمام المجموعات الغازية من الفرس إلى الروم ولم تمكنهم من اختراقها . فعاشت الجزيرة تبعاً لهذه الحواجز بعيدة عن الخضوع لسيطرة الفرس والروم عسكرياً أو عقائدياً (١) وكثيراً ما حاول الفرس والروم الوصول إليها فى وسطها لكنهم عجزوا فاكتفوا بالإستيلاء على أطرافها فى الجنوب والشمال وإرسال الجواسيس إلى مكة كعاملين فى بيوت تجارية من قبل الدول الرومانية أو الأحباش . (٢)

وقد ترتب على منع الغزاة من الوصول إلى سرة الجزيرة العربية ·

آثار هامة حيث :

أ :- احتفظ العربى بسجيته وفطرته

ب :- ولم تداخله تناقضات الفكر . ولا متاهات الفلسلفة والجدل

جـ :- وكذلك اهتم بقوميته فأحيا الشعور الجاد تجاهها فى كل أرجاء الجزيرة وانتهز الفرص لإعلانها :-

أولاً :- يوم قدوم أبرهة بجيشة الذى قصد مكة فى أول محاولة عسكرية ضدها تصدى له فى الطريق منذ خروجه العرب فى البوادى لأنهم شعروا أنه بتوجيهه إلى الكعبة ومكة موجه ضد مشاعرهم ومناسكهم فى نفس الوقت

يقول الأرزقى : إن أبرهة لماخرج بجيشه يريد البيت الحرام خرج له رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له - ذو نفر - فدعا قومه ومن أجابه إلى

---

(١) حياة محمد ص٧١

(٢) أسواق العرب ص ٢٥ والدعوة الإسلامية ص٨٣

مجاهدة « أبرهة » وقتاله لكنهم انهزموا (١) وفى منتصف الطريق عند (خثعم) تصدى له نفيل بن حبيب الخثعمى وقبيلته لكنهم انهزموا كذلك . ولما وصل أبرهة إلى مكة وهلك جاءت التهنئة لأهل مكة من كل مكان . تحمل أشعارا مطولة أوردها مؤرخواً السير (٢) ولقد وقف العرب ضد حملة أبرهة لمعرفتهم أن القصد منها هو الإستيلاء على مكة والإفادة بما تدره تجارتها . (٣)

ومن هنا كانت المجابهة العربية ضد الحملة قومية شاملة لعرب اليمن والأعراب فى البوادى ولأهل مكة

ثانياً :- يوم طرد الأحباش من اليمن وعودة الملك إلى حمير عمت الفرحة سائر الجزيرة العربية .

يقول الأزرقى : إن وفود العرب جميعا خرجت لتهنئة سيف بن ذى يزن مخرج وفد قريش ووفد ثقيف وعجز هوزان وهم نصر وجشم وسعد بن بكر ومعهم وفد عدوان ووفد غطفان ووفد تميم " ووفد قبائل قداعة والأزد (٤) ، وقد ساعد على نمو هذا الشعور القومى وإستمراره : -

أ :- شعور العربى بأن الروم والفرس يرقبونهم وينتظرون فرصة يقومون بها ضدهم .

ب:- وأيضا فقد خلط العرب هذا الشعور القومى بنزعتهم الدينية . وتجارتهم وأعمالهم . وأبرزوه فى عمل ملموس يرتبط بمكان معيشتهم ويدور مع الزمن بانتظام حيث جعلوا من أشهر السنة أربعة .

أشهر يحرم الصراع فيها ، وأثناء هذه الأشهر تقام الأسواق حول مكة

---

(١) أخبار مكه جـ٤ ص٨٧

(٢) كثير منها فى السيرة النبوية جـ١ ص٥٩ وما بعدها .

(٣) التاريخ الإسلامى العام ص٤٩

(٤) أخبار مكه جـ١ ص ٩٤ - ٩٦

فتختلط التجارة – وهى عملهم – بالحج – وهو عقيدتهم – بالشعر والخطابة – وهما رمز قوميتهم وفخرهم – جاء فى أخبار مكة أنه " إذا جاء موسم الحج خرج الناس إلى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة فيقيمون عشرين ليلة ، تقوم فيها أسواقهم بعكاظ والناس يبيعون ويشترون .

فإذا مضت العشرون إنصرفوا إلى مجنة فأقاموا بها عشراً . أسواقهم قائمة فإذا رأووا هلال ذى الحجة ، انصرفوا إلى ذى المجاز فأقاموا بها ثمان ليال أسواقهم قائمة ثم يخرجون يوم التروية إلى عرفة آخر أسواقهم (١) .

وكان القصد من إقامة هذه الأسواق فى موسم الحج وقرب مكة هو : حضور أكبر عدد من سكان المناطق النائية لكى يزودوهم بالشعور القومى .

والنماء الاقتصادى ، ويؤكدوا الرابطة بين سائر العرب ، وفى خلال الأسواق . كانت تقام المسابقات الأدبية حيث يتبارى الشعراء والخطباء فى مفاخر قبائلهم وسمو لهجتهم تحت شعار الأمن والسلام الذى حتمته الأشهر الحرم .

وقد أدى كل هذا إلى تقوية النزعة القومية . وإلى تقوية النزعة الدينية . يتجلى هذا بوضوح فى تقارب اللهجات وإتحاد العرب فى لغة واحدة . وفى وضع الأصنام متجاورة فى مكان واحد .

وهذا كله أفاد الدعوة الإسلامية بعد الجهر بها إذ تمكنت من صهر النزعة الدينية عند العرب وتحويلها إلى معبود واحد .

كما أن النزعة القومية أعطت العرب روح الغيرة والحماس والاندفاع تبعاً لمشاعرهم . وبالدعوة تحولت هذه الخصائص إلى مصلحة الإسلام وفى خدمته . وأيضاً فإن بعد الروم والفرس عن وسط الجزيرة . مكن الدعوة من النمو

(١) السابق جـ١ ص١٢١ – ١٢٢

التدريجى على سنة البشر قبل أن تتمكن أى قوة من قهرها أو كبتها (١) .

كما اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية . هى لغة الدعوة الإسلامية وأن تكون هى الوسيلة المباشرة الأولى لترجمة كلام الله عز وجل وإبلاغه إيانا (٢) .

وهكذا يتضح أن الدعوة الإسلامية . ظهرت أول بدئها فى الجزيرة العربية أو فى مكة على وجه الخصوص ولهذا الأمر علل وحكم يستوقفنا ضوؤها ويجذب انتباهنا هداها . وتحتاج منا إلى وقفات نرى من خلالها مدى وجود الدعوة فى هذه المنطقة ونلمس الحكمة من ظهور الدعوة فيها دون غيرها من الممالك الأخرى المجاورة لها :-

١- لأن الممالك المجاورة خضعت لسلطان دولة وكان لها اتجاهاتها الفلسفية والمذهبية والدينية المستقرة .

وكان لها من القوة السياسية والمادية مايحميها ويدافع عنها ، فلو أن الدعوة ظهرت على هذه الأرض لاصطدمت إبان نشأتها بتلك الفلسفات وهذه المذاهب والأديان ، ولقومت عند تلك السلطات الحاكمة والحال أن الدعوة ما زالت فى مهدها .

٢- إن هذه المجتمعات التى تكونت قديما بلغت من الهرم والضعف مبلغاً يصعب معه الحماس لفكرة جديدة. وذلك بعكس المجتمعات الشابة الناشئة فإن أفرادها يشتعلون حماساً للفكرة التى اجتمعوا حولها .

إن هذه المجتمعات القائمة بسلطانها الدينى والفلسفى والسياسى ، ليس من السهل فيها أن تجمعها على فكرة جديدة ما لم يسقط السلطان السياسى أولاً . وهو أمر صعب . خاصة فى البدايات الأولى للدعوة

الإسلامية .

٣- إن أفراد هذه المجتمعات بما توارثوه من مذاهب وفلسفات وأديان . كانوا فى حالة تمزق فكرى وفى حالة ترنم وضعف مما يجعلهم أقل من رجال العرب الذين كانوا أقرب إلى الفطرة وأخلى عن تعقيد المذاهب .

لكل هذه الأسباب وغيرها كانت الحكمة القوية فى بدء الدعوة وظهورها فى الجزيرة العربية إذا أنها :-

أ- مجتمع جديد ولأفراده مميزات شخصية وفكرية وأنت حيثما تريد أن تكون مجتمعاً على فكرة ما . فمن الأفضل والأحكم أن تختار الخالى من تيارات المذاهب المتصارعة ومن تراكمات الفلسفات والأديان ، فكما يقول علماء الاجتماع إن المجتمع الجديد يبدأ مولوداً منذ النشأة ، ثم يشب قوياً بعد ذلك وهو ما يمكن تحقيقه فى المجتمع العربى على أرض الجزيرة العربية .

ب- للجزيرة العربية سمة دينية وتاريخ دينى . إذ هى أرض الحنيفية السماد وهى الأرض التى بنى عليها أول بيت وضع للناس .

جـ - وثم عامل هام جداً يختص بفطرة العربى تلك الفطرة التى تتميز بالترحال والانتقال . وهو ما ستحتاجة الدعوة أثناء جهادها وكفاحها ، وما تتطلبه من معتنقيها وذلك بعكس المجتمعات المستقرة فإن أفرادها يتثاقلون عندما ينادى داع الجهاد أو النداء لارتباطهم بزراعتهم وبديارهم المشيدة .

د- وللعربى شدة تمسك بمبدئه واستماتة فى سبيله وله من الصفات والأخلاق ما يستفيد منه فى مجال الدعوة عندما يؤمن بها فى النهاية :-

– لأن الدعوة الدينية لابد لها من حماس معين يحقق الاندفاع الذاتى وراء المعتقد . والالتزام به على أنه حياة . ولابد لها من تفتح العقل والفكر والفهم . ليكون مع الحماس بساطة التصديق وعمقه . بلا نفاق أو تردد . ولابد لها أيضا من إيمان قوى . مبنى على الاقتناع مع عصبية واعية . ليس همها الحرب والغارة . ولكن أهم أهدافها نشر الإيمان . والدفاع عنه.

ولابد لها من سهولة التغيير والتصديق . وصعوبة التبديل والارتداد . لتسهيل طاعتها وتصعب الردة عنها .

وكل هذه ضرورات تحتاج إلى شيء من صفات الحضر . وشيء من صفات البدو .

فيفيدها من البدو : الحماسة العصبية وسهولة التغيير وصعوبته العصابية .فليس أكثر من التغيير فى حياة البدوى . لأنه دائماً على عزم السفر والترحال . وليس أكثر من الثبات عنده . لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد .

ويفيدها من الحضارة : الاستقرار . والتصديق . والتكيف مع الواقع ومع القواعد المنظمة فى المعاملة .

وهذا الخلط من الصفات البدوية والحضرية لا يتحقق إلا لقوم سكنوا مدناً وسط الصحراء . تمر بها القوافل . ويأتيها الناس من جميع الجهات لأهداف دينية أو دنيوية . ومثل هذه المدن توجد فيها بعض الصفات البدوية التى حافظت عليها منذ نشأتها . وبسبب موقعها الذى لم يتغير وسط الصحراء التى سكنها البدو من حولهم فى كثير من الأوقات . وتوجد فيها كذلك بعض الصفات الحضرية المكتسبة من الوفود التى أتت إليها . أو . من سفر أبنائها إلى مناطق الحضر . وهذا شيىء بدهى . لأن الإنسان دائماً يتأثر ويؤثر فيمن يختلط بهم

ويراهم . ومكة والمدينة والطائف . مدن من هذا الطراز لأنها جميعاً تقع وسط صحراء مجدبة يسكنها أهلها منذ القديم وتأتيهم القوافل من سائر الأقطار للتجارة والحج . وللاشتراك فى الأسواق .

وهم ينتقلون أيضا إلى المواطن البعيدة متاجرين ولذلك وقفت هذه المدن الثلاث بين الحضارة والبداوة فى صفاتهم وأخلاقهم .

ومن هنا كان أهلها هم أمثل الأمم لحمل الدعوة الإسلامية . وإبلاغها إلى الناس أجمعين . وإنما كانوا أمثل الأمم لأنهم يمتلئون حماساً وتوثباً وشجاعةً . ويتمسكون بمواريثهم حتى الفناء ويندفعون فداء من أجل عرض يمس أو كرامة تهان .

ومع هذا كانوا يحافظون على قواعد حماية الكعبة . وإكرام أضيافها واستقروا حولها مستفيدين من التجارة والقوافل التى ترد إليهم

أو يقومون بها إلى غير بلادهم .

ووضعوا نظام إصدار الحكم فى دار الندوة . وكان حلف الفضول أساساً لوضع الحق فى نصابه . ومحاربه الظلم أياً كان . كل ذلك : فطرة سليمة . وكبرياء عجيب . (١)

وهكذا ظهرت الدعوة الإسلامية فى أمة جمعت بين البدو والحضر . هى أمة العرب فحملتها بكفاءة ومقدرة . وبلغتها إلى الناس أجمعين .

الحالة العامة فى الممالك المجاورة للجزيرة للعربية

وباستعراض الحالة العامة فى الممالك المجاورة يظهر بكل وضوح :

لماذا لم تصلح هذه الممالك لتكون مهداً للدعوة الإسلامية ؟

ولماذا لم يكن أهلها حملة الدعوة ؟ ولماذا لم يكن الرسول ﷺ أحد أبنائها ؟

---

(١) الدعوة الإسلامية : د / غلوش ص٨٥

إنه فى أواخر القرن السادس الميلادى عم الفساد . وانتشر بين الشعوب . وانحدرت الإنسانية إلى هوة سحيقة لم يعرف لها من قبل مثيلاً . فقد انقسم العالم المعروف حينئذ إلى دول متناحرة متدابرة وإلى حكام مستبدين طاغين يسوقون شعوبهم إلى الحروب الطاحنة

استجابة لشهوة القهر وتلبية لامتداد الحكم وسعة السلطان وكانت الأمم مغلوبة على أمرها تساق كقطعان الأغنام وإلى المجازر الرهيبة . لادفاعاً عن حق ، ولا نصرة لوطن ، ولاتثبيت لعقيدة ، وإنما إرضاء لشهوة حاكم مأفون ،

واستجابة لأهواء حاشية منحلة ، وإشباعاً لجشع تجار الحروب وتلبية لغرور القادة المتجبرين . وكانت كل أمة تنقسم إلى طوائف عديدة يتحكم بغضها فى بعض وتستعلى طائفة منها على الأخرين ، فقد كانت الحالة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية فى جميع أنحاء العالم البشرى فساداً فى فساد أمست البشرية تعيش فى الفوضى . وقد ضاقت ذرعاً من سوء صور الحياة ، ذلك لأن الحياة قد فقدت كل فضيلة وحلت محلها الرذيلة وعم على كيانها الانحلال الخلقى وفاتها الهدوء والاطمئنان وحل مكانها القلق والاضطراب وخانها السلم وكثرت على أرجائها الحروب والقتل والنهب وتسلطت أيدى الظلم والاعتداء على شئونها العامة . وخيم على ساحتها الجهل والشرك واضطرت للخضوع لسلطان الباطل حينما فقدت نور الحق . والانحناء أمام القساوسة والبطارقة ، أولئك الذين جعلوا من أنفسهم معبودين لشعوبهم بغير حق ، يحكمون عليهم بما توحى إليهم أهواؤهم ويتصرفون فى أموال الشعوب تصرف الغاصب ويعتدون على أعراضهم اعتداء الظالم المعتدى ولارادع لهم عما يعملون ولا مراقب عليهم فيما يظلمون ، لأنهم هم الحكام باسم الدين ،

والدين منهم براء .

ولا أجد وصفاً لحال العالم إذ ذاك أبلغ وأصدق من كلمة – الظلمات – التى جاءت فى معرض الحديث عن رسالة النبى ﷺ . يقول تعالى **(الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)**. (١)

وهى ظلمات متنوعة مخيفة أحالت العالم إلى ليل طويل مرعب لاينقذه منه إلا النور الذى جاء به نبينا محمد ﷺ

" لقد كانت الجاهلية العالمية التى سبقت الإسلامية العالمية ليلاً موصول الظلام بالأزل ، مبسوط الهول على الأرض . ومن حقبة إلى حقبة كانت تضىء سماؤه الداجية ومضات من عقل الإنسان فى طيبة وأثينا ، وأشعة من وحى الله فى سيناء وأورشليم حتى إذا خبا نور

العقل بحيوانية الرومان ، وخفت صوت الوحى بمادية اليهود ، أطبق الظلام فى كل سماء وغش الضلال على كل أرض ، وسرت قافلة الحياة غوية تتخبط فى مجاهل البيد (٢) .

حتى كان القرن السادس لميلاد المسيح عليه السلام من أحط أدوار التاريخ بلاخلاف ، فكانت الإنسانية متدنية منحدرة منذ قرون ، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردى ، فقد زادتها الأيام سرعة فى هبوطها .

وشدة فى إسفافها ، وكان الإنسان فى هذا القرن قد نسى خالقه .

فنسى نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وقوة التميز بين الخير والشر .

والحسن والقبيح ، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن ، والمصابيح التى

---

(١) سورة إبراهيم آية ١ .

(٢) وحى الرساله : أحمد حسن الزيات جـ ١ ص ٣٠ .

أوقدوها قد انطفأت من العواصف التى هبت بعدهم أوبقيت ، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلاً عن البيوت فضلاً عن البلاد .

وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، ولا ذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات ، فراراً بدينهم من الفتن فى كفاح الدين والسياسة والروح والمادة ، ومن بقى منهم فى تيار الحياة اصطلح مع الملوك

وأهل الدنيا ، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل .... على حساب الضعفاء والمحكومين . (١) هذا هو حال العالم بصفة عامة إجمالية . قبل بعثة النبى ﷺ

الخلاصة :-

من جميع ما ذكر حول إستعراض أحوال العالم قبل البعثة النبوية الشريفة **يتضح مايلى :-**

أولا :- إن البشرية انحدرت فى القرن السادس الميلادى إلى مهوى سحيق فقدت فيه كل كرامتها الإنسانية ، وفضائلها الروحية . والتصقت بالغرائز البهيمية . وأصبحت بين الأنعام كالأنعام . بل أضل سبيلاً (وحيثما التفتنا وقلبنا وجوهنا فى جهات العالم الأربع . فسوف لن نعثر إلا على الفساد والضياع . وإبتداء بأعمق أعاميق النفس البشرية . وانتهاء بالعالم فى مداه الشامل . مروراً بالتجارب والممارسات الدينية والاجتماعية والسياسة والثقافية لاتجد إلا السوس ينخر فى البنيان والعفن يتسرب عميقا فى ضمائر الأشياء والتجارب والممارسات لكى مايلبث السوس والعفن أن يفسدا

كل شيء ويدنسا كل حياة . هكذا ..... فى كل ميدان . وفى كل اتجاه .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٤ .

لانعثر إلا على الفساد والضياع .(١)

على هذه الحالة الأليمة . والقيادة المضلة . كانت قافلة الحياة تسرى .

ظلام مخيم على الكون كله فيه التهاويل التى تفزع كل نفس والعراقيل التى تصدم كل قوم والشياطين التى توسوس هنا بالفتنة وتغرى هناك بالإثم . وتعبث هناك فى الدين وتستعين دائماً بحواء على إغراء آدم .

وكان جو العالم الأرضى متلبداً بسحب الإضطرابات الوحشية فى كل جهة وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكبر من اعتمادهم على وسائل الخير . وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة : أشدهم صيحة فى إصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً وإن كان وقتياً إلا شيء واحد وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان . ولم يبق أمام العالم كله من وسيلة للإنقاذ إلاقبس من السماء ينقذه من وهدته . ويخرجه من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى ومن المادية إلى الروحية بشرط أن يكون هذا القبس المنقذ محفوفاً بما يعصمه من التحريف -

والتبديل . وقد شاء الله تعالى أن يكون هذا القبس المنقذ للعالم كله هو :-

رسالة الإسلام الحنيف ورسول الإسلام ﷺ وقد تحدث القرآن الكريم فيما بعد عن أبعاد الأزمة البشرية عندما قال : **(ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون)** (٢)

لقد جاءت هذه الآية بمثابة أنذار وبشارة فى الوقت نفسه : إنذاراً إلى أن هذا الذى يغمر العالم من فساد واضطراب إنما هو صنع بعض أبنائه أنفسهم وأنهم يغرقون الآن إلى أذقانهم بما صنعوا .

---

(١) دراسة فى السيرة النبوية : د/ عماد الدين خليل ص ٥٣

(٢) سورة الروم آية ٤١ .

وبشارة لكل الذين انشقوا على دنس العصر . واستعلوا على عفنه وفساده .

والوا على أنفسهم أن يتحملوا المسؤلية . وأن يسيروا وراء رسولهم بعيداً عن الحفرة التى كان العالم يختنق فيها من أجل أن يخرجوا بالناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ومن عبادة العباد إلى عبادة الله . وتلك هى قمة الحرية التى بعث الرسول ﷺ لكى يمنحها للإنسان وغاية الدور الكبير الذى يفسر مبعث رسولنا ﷺ .

ثانيا:- إن الجزيرة العربية كانت هادئة بعيدة . بل منعزلة عن مظاهر الاضطراب التى عاشت فيها الممالك الأخرى فلم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتفنون فى خلق وسائل الإنحلال وفلسفة مظاهر الإباحية والانحطاط الخلقى ووضعها فى قوالب من الدين .

ولم يكن لديهم من الطغيان العسكرى الرومانى ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أى رقعة من حولهم .

ولم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليونانى ما يصبحون به فريسة للأساطير والخرافات .

كانت طبائعهم أشبه ماتكون بالمادة الخام التى لم تنصهر بعد فى أى بوتقة محولة فكانت تتراءى فيها الفطرة الإنسانية السليمة . والنزعة القوية إلى الاتجاهات الإنسانية الحميدة كالوفاء والنجدة والكرم والإباء والعفة إلا أنه كانت تعوزهم المعرفة التى تكشف لهم الطريق إلى كل ذلك إذ كانوا يعيشون فى ظلمة من الجهالة البسيطة . والحالة الفطرية الأولى . فكان يغلب عليهم - بسبب ذلك - أن يضلوا الطريق إلى تلك القيم الإنسانية فيقتلوا الأولاد بدافع الشرف والعفة . ويتلفوا الأموال الضروريه بدافع الكرم . ويثيروا فيما بينهم المعارك

بدافع الإباء والنجدة . (١)

فكانوا فى جاهلية . ولكن كان لهم معها فضائل كانت جاهليتهم جاهلية مغالاة وجنوح .

وكانت جاهلية غيرهم جاهلية محق وإبادة لكل المثل والقيم الأخلاقية والدينية وهذه الحالة هى التى عبر الله عز وجل عنها بالضلال حين وصفها بقوله : **(هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)** (٢) وهى صفة إذا ما نسبت إلى حال الأمم الأخرى إذ ذاك تدل على الإعتذار لهم أكثر من أن تدل على تسفيههم أو تعييرهم بها . ذلك أن الأمم الأخرى كانت تستهدى لانحرافاتها العظيمة بمشاعل الحضارة والثقافة والمدنية وكانت تتقلب فى حمأة الفساد عن تبصر وتخطيط وفكر .

ثالثاً :- ثم إن الجزيرة العربية تقع فى نقطة الوسط بين هذه الأمم التى كانت تموج من حولها . إنها تقف فى الوسط التام بين حضارتين جانحتين :-

إحداهما : حضارة الغرب المادية التى قدمت عن الإنسان صورة بتراء لاتقع حتى على جانب جزئى من الحقيقة .

وأخراهما : الحضارة الروحية الخالية فى أقصى الشرق . كتلك التى كانت تعيش فى الهند والصين وما حولهما . (٣)

رابعاً :- إن دول الحضارة يوم ذاك كالفرس والروم والهند عاشت مع صفات الحضارة كلها . من بعد عن الفطرة الخيرة بسبب الإكثار من فنون الملاذ والترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتها . وانتشار الفحش فى القول

---

(١) فقه السيرة / البوطى ص ٣٤

(٢) سوره الجمعة اية ٢

(٣) الأمه العربيه فى معركة تحقيق الذات محمد المبارك ص [illegible] وفقه السيره للبوطى ص [illegible]

والعمل . بين الكبار والصغار . وانصرافهم عن كل أمر ذى بال . كتركهم أمر المعتقدات يوجهها نفر منهم . ولم يقفوا ضد أى تغيير . حتى ولو كان خطأ .

ما دام لايتعارض مع عاداتهم الفاسدة . وأمراضهم النفسية المتفشية (١)

كذلك انتشر فى دول الحضارة نظام الإقطاع الذى أضعف روح العصبية والترابط بين الأفراد . وجعل الرقيق والمزارعين جزءا من الأرض يباعون إذا بيعت ويبقون إذا بقيت. ومثل هذه المجتمعات لاتكون إلا شخصاً

يعيش للتبعية وتنفيذ الأمر المتلقى . ولا يحمى عقيدة دينية ولا يدافع عن مبدأ مقدس . مما جعلهم غير أهل لنزول الدعوة فيهم لأن العقيدة الدينية تحتاج فى كل أحوالها إلى عصبية الأفراد . حتى يمكن أن يحملها الكل . يقول ابن خلدون " إن كل أمر تحمل عليه الكافة

لابد له من عصبية . وكان حال الأنبياء عليهم السلام فى دعواتهم إلى الله بالعشائر والعصبية . وهم المؤيدون عن الله بالكون كله لوشاء لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة . من أن الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم (٢) وذلك لأن الدعوة بلا عصبية تكون عرضة لأن تموت فى مهدها . حينما يهاجمها أعداؤها .

ومن المعلوم أن الحضارة تفتت العصبية وتميت الشجاعة بسبب أن أفرادها يكلون أمر المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذى يسوسهم وينامون خلف الأسوار التى تحوطهم والحرز التى تحول دونهم فلاتهجعهم هيعة . فهم غافلون آمنون . (٣)

---

(١) الدعوة الإسلامية : د/ غلوش ص ٩٩

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٠ - ١٠١

(٣) السابق ص ١٠١

كما أن الطبقة المترفة فى دولة الحضارة بعد فقدها للعصبية والشجاعة تبذل قصارى حيلها لتحافظ على مزاياها .

ومن هذه الحيل :

تنصيبها لمجموعة من الكهنة تخدع الناس وتلهيهم .

وقد تحدثت الكتب السماوية عن بعض هؤلاء الكهنة . فذكرت أنهم بسبب عيشتهم الحضارية . وتمتعهم بمزايا الطبقة . ومن أجل المحافظة على أوضاعهم . حاربوا النبوات حيث ترى كهنة بنى إسرائيل ينكرون النبوات . جاء فى العهد القديم الذى حرفه هؤلاء الكهنة « يقول رب الجنود : إنى أقطع أسماء الأصنام من الأرض . فلا تذكر بعد . وأزيل الأنبياء أيضا والروح النجسى من الأرض .(١)

فتراهم ينسبون إلى الرب أنه سيزيل الأنبياء من الأرض أيضاً كالأصنام والروح النجسى . بل إن الكاهن (أمعيا) كان أول من تصدى للنبى « عاموس» من أجل الملك ، ومن أجل المحافظة على وضعه وميزته وشى بعاموس عند يربعام . تقول التوراة « أرسل أمعيا » كاهن بيت أيل . إلى يربعام . ملك إسرائيل قائلا : قدفتن عليك بملك عاموس فى وسط بيت إسرائيل . لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله . وقال له «عاموس » مباشرة إذهب إهرب إلى أرض يهوذا . وهناك كل خبزاً

وهناك تنبأ . وأما بيت « إيل » فلم تعد تنبأ فيها بعد لأنها مقدس الملك . وبيت الملك . (٢)

وقد أشار القرآن إلى اليهود الذين يتزعمون هؤلاء الكهان . فذكر أنهم

---

(١) سفر زكريا إصحاح ١٣ فقرة ٢

(٢) سفر عاموس إصحاح ٧ فقره . ١٠، ١٢ ، ١٣ .

كانوا : (**يقتلون النبين بغير حق . ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس**) (١) وكانوا . (**كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون**) (٢) فإذا ما أضيف إلى فقدان العصبية والشجاعة وفساد الكهنة فى خدمة سادتهم وسلطانهم . وإذا ما أضيف إلى ذلك :-

- تغش الترف والفساد. وخاصة بين هؤلاء الممتازين فى المجتمع الحضرى الذين تعالوا على من دونهم . وبعدوا عن مشاركتهم حياتهم أو الإستماع لفكرهم أو الإصغاء لأية دعوة تأتى من قبلهم تحقق ما نهدف إلى إثباته من أن الأمة الحضارية ليست هى الأمة المثالية لحمل الدعوة وابلاغها . (٣)

- أما لماذا كانت الدعوة فى قريش بالذات دون سائر القبائل العربية ؟

فذلك لأن قريشاً لها طابع سياسى تتميز به بين العرب وكان لها شكلها الاجتماعى . وكانت أقرب إلى الوحدة السياسية من أى مجتمع آخر ونشأة الدعوة فيها مع محافظة قريش على وحدتها السياسية . يسهل مهمة الدعوة . ويجعل المسلمين فى حرز وأمان .

ولأن ظهور النبى ﷺ فى قبيلة قريش العربية المكية يعطى للدعوة قوة معينة . لأن مكة هى أم القرى . وبها الكعبة وقد درج الناس والعرب على تقديرها والمشاركة فى مواسمها الدينية والتجارية والأدبية ويعدون هذه المشاركة واجباً تجاه مكة . وأهلها القرشيين الذين ينظمون أمور الكعبة . ويحرسون الحجيج ويطعمونهم وهم لجوارهم الكعبة أهل الله يعرفونه فيدافع عنهم . ويخصهم بالفضل من دون الناس .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢١ .
(٢) سورة المائدة آية ٧٠
(٣) الدعوة الإسلامية د/ غلوش ص ٩٩ - ١٠١ .

وبنو هاشم بطن من أوسط بطون قريش ويتصل بهم جميعا . وتلك ميزة لداعية يظهر فيها حيث يجد نفسه مرتبطاً بعربى مع سائر البطون وهذا ما كان . ولقد أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلاوله فية قرابه . (١)

والقربى النسبية تدفع بدورها إلى الوحدة والاتجاه النفسى الواحد .

وتجعل رأى الفرد فيها مسموعاً مطاعاً خاصة فى عصر كثرت فيه التكتلات القائمة على العنف والقوة لدرجة أن عرب مكة جاءوا فى البداية وفى هدوء إلى أبى طالب وشكوا إليه أمر محمد ﷺ لأنه يفرق ولا يجمع . وبذلك تضعف قوتهم . وكان الأمل أن يكونوا – ومعهم محمد – يداً واحدة حتى ولو جعلوه أغناهم أو ملكا عليهم (٢) ثم إن محافظة قريش على وحدتها السياسية جعلهم وإن تعرضوا للمسلمين فى البداية . ببعض المضايقات والاضطهادات . إلا أنها كانت محدودة فى أحداث قليلة . وفى أفراد لهم ظروف معينة فمعظم المضطهدين كانوا من العبيد أو الإماء . أما الأشراف وأحرار المسلمين فلم يلقوا أذى اللهم إلا ما وقع للنبى ﷺ من حادثة ضرب أبى جهل له . والتى رد عليها الحمزة رضى الله عنه . وأردفها بالإسلام وبمعنى آخر فإنه إذا لاقى المسلمون عنتاً . وصداً من قريش فإن هذا لم يرق إلى مستوى التحطيم الكامل . أو القتل الجماعى . أو الإهانات المخلة للمسلمين وذلك لاعتبارات التكوين القبلى لقريش ولمحافظة قريش على شكلها السياسى فى الجزيرة العربية ولو لم يكن هذا لكان من الممكن أن يتعرض واحد كأبى بكر الصديق وقد أسلم على يدية أجلاء الصحابة أو واحد كعثمان أو سعد ..... الإيذاء أو الإعتداء . ولكنه

---

(١) البخارى كتاب المناقب جـ ٤ ص ٢١٧ .

(٢) الدعوة الإسلامية : د/ غلوش ص ١٢١ .

لم يحدث مراعاة لحرمة القبائل .التى ينتمون إليها وخوفا أن ينشب الحرب بين تلك القبائل وتأكيداً لهذا . قلنا : إن الوضع السياسى القرشى يسمح للدعوة أن تسرى فلجأوا لأسلوب المهادنة فيذهبون إلى أبى طالب أن يكف ابن أخيه دون أن يمنعوه بالقوة .

وحتى حينما فكرت فى الانتقام بدأت هذا الانتقام بصورة سلبية لا حربية . كما حدث فى المقاطعة . ولما صعدت تلك العملية إلى الاعتداء بالقتل لرسول الله ﷺ روعى فى ذلك الجانب الجماعى لقريش فكانت فكرة الأربعين شاباً إنطلاقاً من تلك النظرة وحرصاً منهم على أن يبقى طابع الوحدة . عندئذ تعجز قريش عن محاربة جميع القبائل إذا فطوال الثلاثة عشر عاماً على الرغم من وجود بعض مظاهر الاضطهاد للمسلمين إلا أن حرص قريش على شكلها السياسى . أتاح للمسلمين أن يتحركوا بشكل ما داعين إلى دين الله عز وجل .

ورغم هذه المعارضات . وهذا العنت فى سبيل الدعوة فإن القرشيين لم يلبثوا طويلاً فى عنادهم . بل آمنوا بالدعوة والقرآن . وأسلموا أمرهم لله يصنع منهم فى وقت قصير لايذكر . خير أمة أخرجت للناس تتحلى بمكارم الأخلاق وعظائم السلوك وتسعى فى كل مكان لهداية البشر على نهج القرآن الكريم يقول الرافعى :

فالقرآن بتحكمه من فطرة العرب البيانية على وجه معجزه وقد نزل فيهم منزلة الزمان الطويل فى عمله وآثاره . لأن الذى أنزله بعلمه وقدره بحكمته إنما هو خالق الزمن نفسه فهدم ، فى نفوس العرب كل مايتعارض مع الفطرة السليمة وكان هدمه بناء جديداً جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها . (١)
وعلى الجملة فإن الدعوة أثمرت أكلها بظهورها فى الأمة العربية حيث ناسبتها

---

(١) إعجاز القرآن ص ٩١ .

فطرتهم البدوية الحضرية . واخلاقهم الرفيعة . وشجاعتهم الحليمة الوفية وذكاؤهم الحاد . وفهمهم الدقيق . وحافظتهم القوية .

حيث جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا فنشطتها . وسمت بها . وأزالت منهم السلبيات الموروثة فوجد العرب أنفسهم بعد الإسلام تلقائياً يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الإسلامية ويعطون شجاعتهم وإمكاناتهم . لأمر الرسول ﷺ وفى خدمة دعوته فتحركوا إلى كل مكان من أجل نشرها تاركين كل مايهمهم وأصبح تعصبهم اندفاعاً لتنفيذ أوامر الدعوة . وتعاليمها . وكان لهم من استعدادهم ما جعلهم يستفيدون بالدعوة ويفيدونها : يقول الشيخ ولى الدين الدهلوى

« وأراد سبحانه أن يزكى العرب بحضرة النبى ﷺ. ويزكى سائر الأقاليم بالعرب . فلزم أن تكون مادة الشريعة على رسوم العرب وعاداتهم واذا نظرت إلى الشريعة الحنفية ولاحظت رسوم العرب وعاداتهم لتأيد لك أن الشريعة تقوم بدور التسوية والإصلاح وبهذا نزل القرآن على عادات العرب فسواها . حتى استقام أمرها) (١)

وهكذا وضح السر فى اختيار الأمة العربية لتظهر فيها الدعوة أولاً . وفى اختيار قريش بصفة خاصة والله أعلم حيث يجعل رسالته -

---

(١) محاسن التأويل : محمد جمال الدين القاسمى جـ ٢ ص ٢٦٩ ط ١ دار إحياء الكتاب العربى بدون تاريخ وراجع الدعوة الإسلامية د/ غلوش ص ١١٣ .

المبحث الثاني

الداعية الأول فى الإسلام :- إمام الدعاة إلى الله سيدنا محمد ﷺ :-

لئن كان نبى الله نوح عليه السلام هو أول من دعا إلى الله على ما صرح به القرآن ، فإن أولوية نوح عليه السلام فى الدعوة أولية زمانية ، إذ لم يصرح القرآن الكريم بإسناد الدعوة إلى أحد قبل نوح عليه السلام زماناً .

وبديهى أن الأولية التى نقصدها هنا لا تخضع للزمان ولا للمكان .

وانما هى أولوية رتبية ، كمالية ، عامة ، شاملة ، تفرد بها واحد فقط .هو رسول الله محمد ﷺ

ولرسول الله ﷺ المثل الأعلى .. كأول الفرقة أوالدفعة ، أو الكلية أو الجامعة أو أول المتسابقين ، أو المجاهدين . وقد يكون الذى يفوز بالأولية .. هو الأحدث سناً أو زمناً ..

- وأول الدعاة إلى الله ، هو أول العابدين ، الذى قال له رب العزة :- « قل إن كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين (١) »

- وهو أول المسلمين الذى قال له ربه « **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين #وأمرت لأن أكرن أول المسلمين # قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم # قل الله أعبد مخلصاً له دينى** » (٢)

- وهو الذى قال له رب العزة (**قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين**) (٣) وقال أيضا فى نفس السورة :

(**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين # لا شريك**

---

(١) سورة الزخرف آية ٨١ .

(٢) سورة الزمر آية ١١-١٤

(٣) سورة الأنعام آية ١٤.

ـــه وبذلك أمـــــرت وأنا أول المسلمين # قل أغيـر الله أبغى ربـاً وهـو رب كل شىء) .....(١)

– وهو الذى خصه الله سبحانه ، بأن يكون داعياً إلى الله . بإذن الله وبأن يكون وحده مصدر الضياء والإشعاع والنور . بل هو السراج . وهو المنير . والمبشر للمؤمنين بالفضل الكبير . فى قوله سبحانه :–

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً # وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً » (٢)

– وهو أيضا خاتم الدعاة الحقيقيين إلى الله .. وهو محمد ﷺ ، خاتم النبين ورحمة للعالمين والذى نزل .عليه قول رب العالمين :– **« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »** (٣) وكان هذا الداعية الأول والخاتم ﷺ رفيع الحسب . عظيم النسب . طاهر الأصول . فقد تنزه نسبه الشريف عن سفاح الجاهلية . فقد روى عن على كرم الله وجهه أن النبى ﷺ قال « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى . ولم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شىء » (٤)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول ﷺ « لم يلتق أبواى قط على سفاح .

لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مهذباً لا تنشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما . (٥)

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٢ – ١٦٤ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٤٥–٤٧

(٣) سورة الفرقان آية ١ وراجع الفلسفة الحديثة محمد بن فتح الله بدران ص٤٣٣ . ٤٣٤ .

(٤) الوفا بأحوال المصطفى للإمام أبن الفرج عبد الرحمن بن الجوزى جـ١ ص ٧٩ ط١ دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٦ م .

(٥) السابق جـ ١ص ٧٩

ولم يعرف لوليد مثل أبائه الغر الميامين فى عوالى القمم ومحاسن الشيم . حتى قال ﷺ عن نفسه : بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذى كنت فيه « (١) وقوله : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم (٢)

ومارواه الترمزى أنه ﷺ قام على المنبر فقال : من أنا ؟ فقالوا أنت رسول الله عليك السلام . فقال أنا محمد بن عبد المطلب . إن الله خاق الخلق ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرها فرقة . ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة . ثم جعلهم بيوتاً . فجعلنى فى خيرها بيتاً وخيرهم نفساً (٣)

ويرحم الله عمه العباس بن عبد المطلب إذ قال فى شأنه :-

من قبلها طبت فى الظلال وفى	∴	مستودع حين يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر	∴	أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد	∴	ألجم نسرا وأهله الغرق
تنقل من صلب إلى رحم	∴	إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهين فى	∴	خندق علياء تحتها النطق
وانت لما ظهرت أشرقت الأرض	∴	وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النور	∴	وسبل الرشاد تخترق (٤)

---

(١) البخارى كتاب المناقب باب صفة النبى ﷺ جـ ٤ ص ٢٢٩
(٢) مسلم كتاب الفضائل باب فضل نسب النبى ﷺ جـ ١٤ ص ٣٦ .
(٣) الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ٧٩ .
(٤) الملل والنحل للشهر ستانى جـ ٣ ص ٨٥

وعلى كل فقد اختاره الله عز وجل من أصل كريم . وأنشأه على خلق عظيم وجعله فى العالمين سراجاً منيراً .

مولده ونشأته ﷺ :-

وكل الروايات الثابتة والأخبار الصحيحة الصادقة عن حياته قبل البعثة الشريفة تدل بكل وضوح على حقائق كثيرة منها :-

أولاً : أنه ﷺ ولد فى أشرف بيت من بيوت العرب فهو من أشرف فروع قريش وهم بنوهاشم وقريش أشرف قبيلة فى العرب وأزكاها نبلاً وأعلاها مكانة . ولمكانة هذا النسب الكريم فى قريش لم نجدها فيما طعنت به على النبى ﷺ لوضوح نسبه بينهم ولقد طعنت فيه بأشياء كثيرة مفتراه إلا هذا الأمر .

فقالوا : ساحر . وقالوا مجنون . وقالوا يعلمه بشر .. الخ

ويؤخذ من هذا :-

أنه كلما كان الداعية إلى الله أو المصلح الإجتماعى . فى شرف من قومة ، كان ذلك أدعى إلى استماع الناس له فإن من عادتهم أن يزدروا بالمصلحين والدعاة إذا كانوا من بيئة مضمورة أو نسب وضيع . فإذا جاءهم من لا ينكرون شرف نسبه ولا مكانة أسرته الاجتماعية بينهم لم يجدوا ما يقولونه عنه إلا افتراءات يتحللون بها من الاستماع إلى دعوته والإصغاء إلى كلامه . ولذلك كان أول ما سأل عنه هرقل أبا سفيان بعد أن أرسل الرسول إلى هرقل كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام هو وقومه :- كيف نسبه فيكم ؟

فأجاب أبوسفيان - وهو يومئذ على شركه :- هو من أشرفنا نسباً ، ولما انتهى هرقل من أسئلته لأبى سفيان . وسمع جوابه عنها . أخذ يشرح له سر الأسئلة التى توجه بها إليه حول محمد رسول الله ﷺ فقال له هرقل : سألتك كيف نسبه فيكم ؟ فزعمت أنه من أشرفكم نسباً . وكذلك لا يختار الله النبى إلا

من كرام قومه ، وأوسطهم نسباً (١)

صحيح أن الإسلام لا يقيم وزناً لشرف الأنساب تجاه الأعمال . ولكن هذا لا يمنع أن يكون الذى يجمع بين شرف النسب وشرف الفعل ، أكرم وأعلى مكاناً . وأقرب نجاحاً

ثانياً : أنه نشأ يتيماً فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين فحسب ، ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنه ، فذاق ﷺ فى صغره مرارة الحرمان

من عطف الأبوين وحنانهما ، وقد كفله بعد ذلك جده عبد المطلب ، ثم توفى ورسول الله ابن ثمان سنوات ، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب حتى نشأ واشتد ساعده وإلى يتمه أشار القرآن الكريم بقوله : **(ألم يجدك يتيماً فآوى)** (٢) وأمضى رسول الله ﷺ السنوات الأربع الأولى من طفولته فى الصحراء فى بنى سعد . فنشأ قوى البنية سليم الجسم فصيح اللسان جرىء الجنان . يحسن ركوب الخيل على صغر سنه . وقد تفتحت مواهبه على صفاء الصحراء وهدوئها . وإشراق شمسها . ونقاوة هوائها . وإن فى تحمل الداعية آلام اليتم أو العيش وهو فى صغره ما يجعله أكثر إحساساً بالمعانى الإنسانية النبيلة . وامتلاء بالعواطف الرحيمة نحو اليتامى أو الفقراء أو المعذبين وأكثر عملاً لإنصاف هذه الفئات والبر بها . والرحمة لها . وكل داعية يحتاج إلى أن يكون لديه رصيد كبير من العواطف الإنسانية النبيلة التى تجعله يشعر بالآم الضعفاء والبائسين

ولا يوفر له هذا الرصيد شىء مثل أن يعانى فى حياته بعض معاناة أولئك المستضعفين كاليتامى والفقراء والمساكين .

---

(١) البخارى جـ ١ ص ٦٩ رقم ٧

(٢) سورة الضحى آية ٦ .

ولقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة لعل من أهمها :

أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة فى القلوب .

أو إيهام للناس بأن محمداً ﷺ إنما رضع لبان دعوته ورسالته التى نادى بها منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده ، ولم لا ؟ وأن جده عبد المطلب كان صدراً فى قومه (١)

ومن الفطرى أن يربى الجد حفيده . أو الأب ابنه على مايحفظ لديه هذا الميراث . لقد شاءت حكمة الله عز وجل أن لا يكون للمبطلين من سبيل إلى مثل هذه الريبة ، فنشأ رسوله بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجده ، وحتى فترة طفولته الأولى فقد أرادت حكمة الله عز وجل أن يقضيها فى بنى سعد . بعيداً عن أسرته كلها . ولما توفى جده وانتقل إلى كفالة عمه أبى طالب الذى امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات ..

كان من تتمة هذه الحكمة أن لا يسلم عمه حتى لا يتوهم أن لعمه مدخلاً فى دعوته . وأن المسألة مسألة قبيلة . وأسرة . وزعامة . ومنصب . وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً ، تتولاه عناية الله وحدها . بعيداً عن الذراع التى تمعن فى تدليله . والمال الذى يزيد فى تنعيمه حتى لاتتميل به نفسه إلى مجد المال والجاه . حتى لا تتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة . فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا ، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثانى ..

ثالثاً : تعرف فيه النجابة من صغره وتلوح على محياه مخايل الذكاء الذى يحببه إلى كل من رآه ولقد كان لجده عبد المطلب فراش يوضع فى فناء الكعبة . وكان إذا جلس عليه لا يجلس معه على الفراش أحد من أولاده (أعمام الرسول)

---

(١) فقه السيرة : البوطى ص ٥٠ .

فكان إذا أتى الرسول ﷺ وهو غلام جلس فى فراش جده فيحاول أعمامه انتزاعه عن الفراش فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابنى فو الله إن له لشأناً (١)

رابعاً : أنه عليه السلام كان فى أوائل شبابه يعمل من أجل الكسب الشريف فكان يرعى لأهل مكة أغنامهم بقراريط يأخذها أجراً على ذلك وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال : ما من نبى إلا قد رعى الغنم قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : وأنا وفى رواية أخرى أنه قال : مابعث الله نبياً إلارعى الغنم فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ فأجاب : « وأنا رعيتها لأهل مكة على قراريط (٢)

قال ابن عقيل : لما كان الراعى يحتاج إلى سعة خلق وإنشراح صدر للمدارة . وكان الأنبياء معدين لإصلاح الأمم ، حسن هذا فى حقهم (٣) ثم لما بلغ من عمره خمساً وعشرين عمل لخديجة بنت خويلد فى التجارة بمالها على أجر تؤديه إليه .

وعلى هذا ينبغى للداعية أن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو مورد شريف لا استجداء فيه ولا ذلة ولا مهانة .

إن الدعاة الصادقين الشرفاء يربأون بأنفسهم أن يعيشوا من صدقات الناس وأعطياتهم . وأيه كرامة تكون لهم فى نفوس قومهم بعد أن يهينوا أنفسهم بذل السؤال والاستجداء ولو لم يكن صريحاً مكشوفاً .

فإذا وجدنا من يرعى الدعوة والإرشاد وهو يستكثر من أموال الناس بشتى أنواع الحيل، فإننا نجزم بمهانة نفسه فى نفسه فكيف فى نفوس قومه وجيرانه؟

ومن ارتض لنفسه المهانة فكيف يستطيع أن يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ويقف فى وجه الطغاة والمفسدين ويحارب الشر والفساد . ويبعث فى الأمة روح

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص ١٧٦ .
(٢) الوفا بأحوال المصطفى جـ١ ص ١٤٢ .
(٣) السابق جـ ١ ص ١٤٢ .

الكرامة والشرف والاستقامة من هذا كان إقباله على رعى الأغنام والتجارة لقصد اكتساب القوت والرزق وفيه ثلاث دلالات هامة :-

أ : الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمل الله تعالى بهما نبيه محمداً ﷺ لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة . وكان له فى الحنو والسفقة ، كالأب الشفوق ولكنه ﷺ ما أن آنس فى نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الإنفاق عن عمه وربما كانت الفائدة التى يجنيها من وراء عمله الذى اختاره الله له . فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبى طالب . ولكنه على كل : تعبير أخلاقى . رفيع ينم عن الشكر ، وبذل الوسع ، وشهامة فى الفطرة وبر فى المعاملة .

ب : تتعلق ببيان نوع الحياة التى يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين فى دار الدنيا . لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أى تهىء للنبى ﷺ وهو فى صدر حياته من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح . ورعاية الأغنام . سعيــاً وراء القوت كما حدث مع السيدة مريم البتول أم المسيح عليه السلام حينما **(دخل عليها زكريا المحراب وجه عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا : قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)** (١) ولكن الحكمة الإلهية تريد منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكد يمينه . ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعة . وبنى جنسه ،

وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أى تعب فى سبيله ، ودون أن يبذل أى فائدة للمجتمع فى مقابله .

جـ : إن صاحب أى دعوة لن تقوم لدعوتة أى قيمة فى الناس إذا ما كان

---

(١) سورة آل عمران من الآية ٣٧

كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم .

ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو مورد شريف لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل فى دنياه فيعقبه ذلك أن يصدع بكلمة الحق فى وجهه غير مبال بالموقع الذى قد تقع فيه نفسه .

وهذا المعنى وإن يكن قد خطر فى بال الرسول ﷺ فى هذه الفترة إذ أنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن الدعوة والرسالة الإلهية غير أن هذا المنهج الذى هيأه الله له ينطوى على هذه الحكمة ويوضح أن الله تعالى قد أراد أن لا يكون فى شىء من حياة الرسول قبل البعثه ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أى تأثير سلبى ، فيما بعد البعثه (١)

خامساً : لم يشارك ﷺ أقرانه من شباب مكة فى لهوهم ولا عبثهم . وقد عصمه الله من ذلك فقد استفاض فى كتب السيرة (٢) أنه سمع وهو فى سن الشباب غناء من إحدى دور مكة فى حفلة عرس فأراد أن يشهدها ، فألقى الله عليه النوم فما أيقظه إلا حر الشمس ولم يشارك فى عبادة الأوثان ولا أكل شيئاً مما ذبح لها ، ولم يشرب خمراً . ولا لعب ، قماراً ولا عرف عنه فحش فى القول أو هجر فى الكلام .

وفيما قصه ﷺ عن نفسه من خبر حفظ الله إياه من كل سوء منذ صغره وصدر شبابه ما يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية :-

الأولى :-

أن النبى ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشرية كلها . وكان يجد فى نفسه ما يجده كل الشباب من مختلف الميولات الفطرية التى اقتضت حكمة الله أن يجبل

---

(١) فقه السيرة : البوطى ص ٥٤ - ٥٥

(٢) كالوفا بأحوال المصطفى لإمام ابن الجوزى ودلائل النبوية للبيهقى .

الناس عليها.

فكان يحس بمعنى السمر واللهو . ويشعر بما فى ذلك من متعة . وتحدثه نفسه لوتمتع بشيىء من ذلك كما يتمتع الآخرون ؟!

الثانية :-

أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل مالا يتفق مع مقتضيات الدعوة التى هيأه الله لها . فهى حتى عندما لا يجد لديه الوحى أو الشريعة التى تعصمه من الاستجابة لكثير من رغائب النفس يجد عاصماً آخر خفياً يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه نفسه ممالا يليق بمن هيأته الأقدار لتتميم مكارم الأخلاق وإرساء شريعة الإسلام وفى اجتماع هاتين الحقيقتين لديه ﷺ دليل واضح على أن ثمة عناية إلهية خاصةتسيره وتأخذ بيده بدون وساطة الأسباب العادية . كوسائل : التربية والتوجيه .

ومن ذا الذى يوجهه فى طريق هذه العصمة . وكل الذين حوله من أهله وبنى قومه وجيرانه غرباء عن هذا الطريق ، ضالين عن هذه الوجهة . إن هذه العناية الإلهية الخاصة التى جعلت لشباب النبى ﷺ طريقاً دقيقاً من النور يمخر عباب ظلام الجاهلية .

من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التى خلقه الله لها وهيأه لحمل أعبائها . وعلى أن معنى النبوة هو الأساس فى تكوين شخصيتة واتجاهاتها النفسية والفكرية والسلوكية فى الحياة .

وكان من اليسير أن يولد الحبيب الأعظم ﷺ وقد انتزعت من نفسه كل هذه الدوافع الغريزية إلى التمتع بالشهوات والأهواء فلا يجد فى نفسه ما يدفعه أصلاً إلى ترك أغنامه أمانة عند زمليه ليهبط إلى بيوت مكة فيبحث بينها عن قوم يسمرون أو يلهون ويمرحون .

غير أن ذلك لايدل حينذاك على أكثر من شذوذ فى تركيبه النفسانى وهى ظاهرة يوجد لها نماذج فى كل قوم وعصر ، وإذاً فليس ثمة ما تدل على العناية الخفية التى تصرفه عما لايليق رغم وجود الدوافع الغريزيه نحوه ، وإنما أرادت حكمة الله عز وجل أن يتبدى للناس من هذه العناية الإلهية بالرسول الكريم ما يسهل عليهم أسباب الإيمان برسالته ويبعد عن أفكارهم عوامل الريب فى صدقه . (١)

لأن استقامة الداعية فى شبابه وحسن سيرته :

أدعى إلى نجاحه فى دعوته إلى الله . وإصلاح الأخلاق . ومحاربة المنكرات إذ لايجد فى الناس من يغمزه فى سلوكه الشخصى . قبل قيامه بالدعوة ، وكثيراً ما رأينا أناساً قاموا بدعوة الإصلاح وبخاصة إصلاح الأخلاق كان من أكبر العوامل فى إعراض الناس عنهم مايذكرونه لهم من ماضى ملوث وخلق غير مستقيم بل إن هذا الماضى السىء يكون مدعاة للشك فى صدق مثل هؤلاء الدعاة بحيث يتهمون بالتستر وراء دعوة الإصلاح لمآرب خاصة أو يتهمون بأنهم ما بدأوا بالدعوة إلى الإصلاح إلا بعد أن قضوا لبانتهم من ملذات الحياة وشهواتها . وأصبحوا فى وضع أو عمر لا أمل لهم فيه بالاستمرار فيما كانوا يبلغون فيه من عرض أو مال أو شهوة أو جاه ، بل إن بعض أصحاب الماضى السىء عندما يعلنون توبتهم و إصلاحاتهم قد يعلنونها من أجل الوصول إلى هدف يشبع رغبتهم .

وبعد الوصول ينسلخون من توبتهم وإصلاحاتهم وينقلبون على أعقابهم . خاسئين أما الداعية المستقيم فى شبابه فإنه يظل أبدا رافع الرأس ناصع الجبين ، لا يجد أعداء الإصلاح سبيلاً لغمزه بماضى قريب أو بعيد ولا يتخذون

---

(١) السابق ص ٥٠ .

من هذا الماضى المنحرف تكأة للتشهير به ، ودعوة الناس إلى الاستخفاف بشأنه .

نعم إن الله يقبل توبة التائب المقبل عليه بصدق وإخلاص ويمحوبحسناته الحاضر سيئاته المنصرمة ، ولكن هذا الشيد غير الداعية الذى ينتظر لدعوته النجاح . إذا استقامت سيرته ، وحسنت سمعته .

سادساً : عرف عنه ﷺ منذ إدراكه :رجحان العقل وأصالة الرأى . وفى حادثة وضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة دليل واضح على هذا . فقد أصاب الكعبة سيل أدى إلى تصدع جدرانها فقرر أهل مكة هدمها . وتجديدبنائها ، وفعلوا . فلما وصلوا إلى مكان الحجر الأسود فيها اختلفوا اختلافاً شديداً فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه .

وأرادت كل قبيلة أن يكون لها هذا الشرف واشتد النزاع حتى تواعدوا للقتال ثم ارتضوا أن يحكم بينهم أول داخل من باب شيبة . فكان هو رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا بحكمه فلما أخبر بذلك ، حل المشكلة بما رضى عنه جميع المتنازعين .

فقد بسط رداءه ، ثم أخذ الحجر فوضعه فيه . ثم أمرهم أن تأخذ كل قبيلة بطرف من الرداء فلما رفعوه ، وبلغ الحجر موضعه أخذه ووضعه بيده . فرضوا جميعاً (١) . وصان الله تعالى بوفور عقله وحكمته ﷺ دماء العرب من أن تسفك إلى مدى لايعلمه إلا الله :-

أ- ويؤخذ من هذا :-

مدى حكمة النبى ﷺ فى تدبير الإمور وسياسة القضايا وقطع دابر الخصومات ويبين من ؟ بين أقوام قلما قامت بينهم خصومه ثم نامت قبل أن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٢٠٤ .

تراقى فيما بينهم بسببها الدماء ومنذ وصل بهم الخلاف كما نعلم إلى درجة كاد أن ينشب فيما بينهم القتال .

فقد قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً دون أن يردها إلى الوفاق أى رأى أو تدبير حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ . ونحن ينبغى أن نحيل هذه المزيه فيه ﷺ إلى ما اختاره الله له من القيام بعبء الرسالة .

والنبوة قبل أن نحيلها إلى العبقرية التى جبل عليها . والذكاء الذى فطر عليه . فالأساس الأول فى تكوينه ﷺ . أنه رسول ونبى . ثم تأتى المزايا الأخرى كلها . من عبقرية وذكاء مبنية على هذا الأساس ولاحقة به .

ب - كما يؤخذ من هذا :

مدى سمو منزلته ﷺ . بين رجال قريش على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم . فقد كان ملقباً عندهم بالأمين . وكان محبوباً منهم كلهم - وكانوا لا يرتابون فى صدقه إذا حدث . وفى كريم أخلاقه إذا عومل .

وفى عظيم إخلاصه إذا ما استعين به ، واعتمد عليه (١) .

جـ - كما يؤخذ من هذا :

أنه لا يتأهل لمركز الدعوة وقيادتها إلا الذكى النبيه . فالأغبياء والمتوسطون فى نجابتهم . أبعد الناس عن جدارة القيادة الفكرية أو الإصلاحية . أو الروحية . بل إن من سنن الحياة أن لا يتمكن من القيادة فى أية ناحية من نواحى الحياة عن جدارة واستحقاق : الأغبياء والمضطربون فى تفكيرهم . والشاذون فى آرائهم . وإذا واتت الفرصة واحداً من هؤلاء . فحملته إلى مركز القيادة .

---

(١) فقه السيرة للبوطى ص ٦٤ .

فسرعان ما يهوى إلى الحضيض ويتخلى عنه قومه بعد أن تدلهم أفعالهم على غباوته أو شذوذه أو اضطراب تفكيره .

سابعاً :

عرف ﷺ فى شبابه بين قومه بالصادق الأمين . واشتهر بينهم بحسن المعاملة . والوفاء بالوعد . واستقامة السيرة . وحسن السمعة . مما رغب خديجة رضى الله عنها فى أن تعرض عليه الاتجار بمالها فى القافلة التى تذهب إلى بصرى كل عام على أن تعطيه ضعف ما تعطى رجلاً من قومها . فلما عاد إلى مكة . وأخبرها غلامها ميسرة بما كان من أمانته وإخلاصه ورأت الربح الكثير فى تلك الرحلة :

أضعفت له من الأجر ضعف ما كانت أسمت له ، ثم حملها ذلك على أن ترغب فى الزواج منه فقبل أن يتزجها وهو أصغر منها بخمسة عشر عاماً . وأفضل شهادة له بحسن خلقه قبل النبوة قول خديجة له بعد أن فاجأه الوحى فى غار حراء . وعاد مرتعداً كلا . والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم . وتحمل الكل – الضعيف – وتكسب المعدوم ... الخ (١) .

ثامناً :

سافر مرتين خارج مكة أولاهما إلى الشام مع عمه أبى طالب . حين كان عمره اثنى عشر سنة (٢) وثانيتها إلى الشام أيضاً كان عمره خمساً وعشرين سنه متاجراً لخديجة بمالها . (٣) وكانت كلتا الرحلتين إلى مدينة بصرى بالشام . وفى كلتيهما . كان يسمع من التجار أحاديثهم ، ويشاهد آثار البلاد التى مر بها .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ١٩٢
(٢) السابق جـ ١ ص ١٨٦
(٣) السابق جـ ١ ص ١٩٢

والعادات التى كان عليها سكانها وتجارد الداعية بالسفر ومعاشرة الجماهير . والتعرف على عوائد الناس وأوضاعهم ومشكلاتهم . لها أثر كبير فى نجاح دعوته .

فالذين يخالطون الناس فى الكتب والمقالات دون أن يختلطوا بهم على مختلف اتجاهاتهم . قوم مخفقون فى دعوة الإصلاح .لا يسمع الناس إليهم . ولا تستجيب العقول لدعوتهم لما يرى فيهم الناس من جهل بأوضاعهم ومشكلاتهم لذا كان من الضرورى والأهمية بمكان أن يخالط الداعية الناس فمن أراد أن يصلح المتدينين . عليه : أن يعيش معهم فى مساجدهم ومجالسهم ومجتمعاتهم . ومن أرد أن يصلح حال العمال والفلاحين عليه أن يعيش معهم فى قراهم ومصانعهم وبيوتهم . ويتحدث إليهم فى مجتمعاتهم . ومن أراد أن يصلح المعاملات الجارية بين الناس عليه أن يختلط بهم فى أسواقهم ومتاجرهم ومصانعهم وأنديتهم ومجالسهم . ومن أراد أن يصلح الأوضاع السياسية . عليه أن يختلط بالسياسيين ويتعرف إلى تنظيماتهم ويستمع لخطبهم . ويقرأ لهم برامجهم وأخبارهم . ثم يتعرف على البيئة التى يعيشون فيها . والثقافة التى نهلوا من معينها . والاتجاه الذى يندفعون نحوه : ليعرف كيف يخاطبهم بما لا تنفر منه نفوسهم .

وكيف يسلك فى إصلاحه معهم . بما لا يدعوهم إلى محاربته عن كره نفسى . واندفاع عاطفى .

وهكذا يجب أن يكون للداعية من تجاربه فى الحياة . ومعرفته بشئون الناس ما يمكنه من أن يحقق قول الله تعالى – **(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)** – (١)

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

تاسعاً :

حبب الله إليه ﷺ قبيل البعثة بسنوات : أن يخرج إلى غار حراء . وهو جبل يقع فى جانب الشمال الغربى من مكة . (١)

فكان يخلوفيه وتعبد فيه الليالى ذوات العدد . فتارة عشرة . وتارة أكثر من ذلك إلى شهر . ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى فيعيد الكرة إلى غار حراء ، وهكذا إلى أن جاءه الوحى وهو فى إحدى خلواته تلك .

فقد روى البخارى بسنده عن أم المؤمنين السيدة عائشة أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث (٢) فيه الليالى ذوات العدد . قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزودلمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : **(اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة . ثم أرسلنى . فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم)** فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى زملونى

فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة : وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا . والله مايخزيك الله أبداً . إنك لتصل الوحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٢٤٢

(٢) يتعبد

خديجة وكان أمرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمر ، فقالت له خديجة : ياابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا . ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجى هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك أنصرا نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى (١) وعن جابر بن عبد الله الأنصارى

قال : إن رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى قال فى حديثه : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء . فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء . جالس كرسى بين السماء والأرض . فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى ، فأنزل الله تعالى :- **(يأيها المدثر . قم فأنذر وربك فكبر . وثيابك فطهر والرجز فاهجر)** – فحمى الوحى وتتابع . (٢) والمتأمل فى حديث بدء الوحى للنبى ﷺ يجد أن الخلوة التى حببت إلى قلب النبى ﷺ لها دلالة عظيمة جداً ولها أهمية كبرى فى حياة المسلمين عامة . والداعيين إلى الله بصورة خاصة .

فهى توضح : أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحلياً بالفضائل . قائماً بألوان العبادات حتى يجمع إلى ذلك ساعات من العزلة والخلوة . يحاسب فيها النفس . ويراقب الله تعالى . ويفكر فى مظاهر الكون . ودلائل ذلك على عظمة الله . هذا فى حق أى مسلم يريد لنفسه الإسلام الصحيح

فكيف بمن يريد أن يضع نفسه موضع الداعى إلى الله والمرشد إلى الطريق الحق .

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ ص ١٧ وما بعدها باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ

(٢) السابق جـ١ ص ٢٤

وحكمة ذلك أن للنفس الإنسانية آفات لا يقطعها إلا العزلة عن الناس ، ومحاسبتها فى نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها . فالكبر والعجب والحسد والرياء وحب الدنيا كل ذلك آفات من شأنها أن تتحكم فى النفس وتتغلغل إلى أعماق القلب . وتعمل عملها التهذيبى فى باطن الإنسان .

رغم ماقد يتحلى به ظاهره من الأعمال الصالحة . والعبادات المبرورة ورغم ماقد ينشغل به ، من القيام بشؤون الدعوة والإرشاد وموعظة الناس . وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يختلى صاحبها بين كل فترة وأخرى مع نفسه ليتأمل فى حقيقتها ومنشئها . ومدى حاجتها إلى عناية الله تعالى . وتوفيقه فى كل لحظة من لحظات الحياة ، ثم ليتأمل فى الناس مدى ضعفهم أمام الخالق عز وجل . وفى عدم أى فائدة لمدحهم أو قدحهم ، ثم ليتفكر فى مظاهر عظمة الله . وفى اليوم الآخر . وفى الحساب وطوله . وفى عظيم رحمة الله . وعظيم عقابه . فعند التفكير الطويل المتكرر فى هذه الأمور تتساقط تلك الآفات اللاحقة بالنفس . ويحيا القلب بنور العرفان والصفاء ، فلا يبقى لعكر الدنيا من سبيل إلى تكدير مرآته .

وشىء آخر له بالغ الأهمية فى حياة المسلمين عامة وأرباب الدعوة خاصة : هو زيادة محبة الله عز وجل فى القلب . فهو منبع التضحية والجهاد . وأساس كل دعوة متأججة صحيحة . ومحبة الله تعالى لاتأتى من مجرد الإيمان العقلى به ، فالأمور العقلانية وحدها ما كانت يوماً ما لتؤثر فى العواطف والقلوب . ولو كان الأمر كذلك ، لكان المستشرقون وخاصة المتعصبين فى مقدمة المؤمنين بالله تعالى ورسوله ، ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حباً لله ورسوله . وإنما الوسيلة إلى محبة الله تعالى – بعد الإيمان به :– كثرة التفكير فى آلائه ونعمه . وبالتأمل فى مدى جلاله وعظمته ، ثم الإكثار من ذكره سبحانه وتعالى بالقلب

واللسان وإنما يتم كل ذلك بالعزلة والخلوة والابتعاد عن شواغل الدنيا . وضوضائها . فى فترات متقطعة متكررة من الزمن .

فإذا قام المسلم بذلك وتهيأله أداء هذه الوظيفة ، نبتت له من ذلك فى قلبه محبة إلهية خالصة ، تجعله يستصغر كل عظيم غير الله تعالى . ويحتقر كل مغرية من المغريات ،

ويستهين بكل إيذاء وعذاب . ويستعلى فوق كل إذلال أو استهزاء . فتلك هى العدة الكبرى التى ينبغى أن يتسلح بها الدعاة إلى الله وتلك هى العدة التى جهز الله بهاحبيبه محمداً ﷺ للقيام بأعباء الدعوة الإسلامية .

ذلك لأن الدوافع الوجدانية فى القلب من خوف ومحبة ورجاء تفعل ما لا يفعله الفهم العقلانى المجرد . ولقد أجاد الشاطبى رحمه الله حينما فرق فى هذه الدوافع بين عامة المسلمين الذين دخلوا فى ربقة التكاليف بدافع من عموم إسلامهم ، وخواصهم الذين دخلوا فى ربقة هذه التكاليف يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل والفهم . يقول :-

فالضرب الأول - عامة المسلمين -

حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام وعقد الإيمان من غير زائد ،

والثانى - خواص المسلمين حاله حال من يعمل بحكم غلبة الخوف والرجاء أو المحبة ، فالخوف سوط سـائق . والرجاء حاد قائد . والمحبة تيار حامل ، فالخائف يعمل مع وجد المشقة . غيـر أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على مـا هو أهون وإن كـان شاقاً . والراجى يعمل مع وجود المشقة أيضاً ، غير أن الرجاء فى تمام الراحـة يحمل على الصبر على تمام التعب والمحب يعمل ببـذل المجهود شوقاً إلى المحـبوب ، فيسهل عليه الصعب . ويقرب عليه البعيد ، وتغنى القوى ، ولايرى أنه أوفى بعهد المحبة ، ولا قام بشكر

النعمة . (١) واتخاذ الوسائل المختلفة لتحقيق هذه الدوافع الوجدانية فى القلب مما أجمع المسلمون على ضرورته ، وهو ما يسمى بالتصوف عند جمهور العلماء والباحثين . أو بالإحسان عند بعضهم ، أو بعلم السلوك عند بعض آخر كالإمام ابن تيميه رحمه الله تعالى . (٢)

والإختلاء الذى كان يمارسه ﷺ قبيل بعثته كان واحدة من هذه الوسائل لتحقيق هذه الدوافع نفسها .

بيد أنه لا ينبغى أن يفهم معنى الخلوة كما شذ البعض ففهموها حسب شذوذهم ، وهو الانصراف الكلى عن الناس واتخاذ الكهوف والجبال موطناً واعتبار ذلك فضيلة بحد ذاتها . فذلك مخالف لهديه ﷺ ولما كان عليه عامة أصحابه . إنما المراد هو استحباب اتخاذ الخلوة دواء لإصلاح الحال كما ذكرنا ، والدواء لا ينبغى أن يؤخذ إلا بقدر ، وعند اللزوم . وإلا انقلب إلى داء ينبغى التوقى منه . وإذا رأيت فى تراجم الصالحين من استمر على الخلوة والابتعاد عن الناس فرد ذلك إلى حالة خاصة بـه ، وليس عمله حجة على الناس .(٣) ويؤخذ من خلوة الرسول ﷺ فى غار حراء : أنه يجب على الداعية إلى الله – تعالى –أن تكون له بين الفينة والفينة أوقات يخلو فيها بنفسه تتصل فيها روحه بالله جل شأنه ، وتصفوفيها نفسه من كدورات الأخلاق الذميمة . والحياة المضطربة من حوله ومثل هذه الخلوات تدعوه إلى محاسبة نفسه إن قصرت فى خير ، أو زلت فى اتجاه ، أو جانبت سبيل الحكمة . أو أخطأت فى سبيل أو منهج أو طريق ، أو انغمست مع الناس فى الجدال والنقاش . حتى أنسته تذكر الله والأنس به ، وتذكر الآخرة ، وجنتها ونارها . والموت وغصصه

---

(١) الموافقات للشاطبى جـ ٢ ص ١٤١ .

(٢) فقه السيرة : د.البوطى ص ٦٤

(٣) فقه السيرة للبوطى ص ٦٤

وآلامه . ولذلك كان التهجد وقيام الليل فرضاً فى حق النبى ﷺ مستحباً فى حق غـيـره . وأحق الناس بالحـرص على هذه النافلة . هم الدعـاة إلى الله وشريعته وجنته ، وللخلوة والتهجد والقيام لله بالعبودية فى أعقاب الليل لذة لا يدركها إلا من أكرمه الله بها .

وحسبنا قول الله تبارك وتعالى مخاطباً رسول ﷺ

(يأيها المزمل * قم الليل إلاقليلا * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ، إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلاً * إن لك فى النهار سبحاً طويلاً *) (١)

وقد دلت هذه الآيات الكريمة ، على أنه تعالى كلف نبيه ﷺ بقيام الليل على هذا النحو . لأنه سيلقى عليه قولاً ثقيلاً ، وهو دعوة البشر جميعاً إلى توحيد الله ، ونبذ جميع العقائد والأديان . لما شابها من الشرك والوثنية . ولا ريب فى أن ذلك عبء ثقيل لا تحتمله النفوس العادية فإذا كلف بها فرد واحد فإنه لايقدر على حملها إلا إذا تأهل بألوان التأهيل اللائقة وأخصها التوجه إلى رب العزة بالعبادة الفائقة واللياذ به وإليه . بالقلب والمشاعر . وقد وضع الله المنهج اللائق بذلك فى مطلع سورة المزمل .

كما دلت تلك الآيات على : أن النفس الناشئة فى الليل أى الناهضة فيه للعبادة هى أشد ثبات قدم ، وأبعث على القول المستقيم .

كما دلت على : أن النبى ﷺ له فى النهار سبح طويل ، ومضى فى مصالحه المختلفة وانصرافه إلى نومه وراحته لو أراد ، فلذلك جعل تكليفه بتلك العبادة فى الليل دون النهار

وبعد أن تأهل بالعبادة على النحو الذى بينته الآيات ، كلفه الله بإنذار الناس

---

(١) سورة المزمل آية ١ - ٧ .

وتبليغ الدعوة بقوله : (**يأيها المدثر ، قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولاتمنن تستكثر . ولربك فاصبر**) .(١)

ولقد بدأ المنهج الربانى للدعوة إلى القراءة والعلم ، وإلى مجاهدة النفس بقيام الليل أو بعضه وتلاوة القرآن فيه . لما فى ذلك من قوة الروح . وصفاء النفس ونشاط البدن . وعظيم الأجر من الله تعالى . وأعقب ذلك الأمر بالنهوض للدعوة . وإنذار الناس بها وتعظيم أمر الله وتطهير القلب حتى تكون أعماله خالصة لوجه الله تعالى . مع مفارقة الآثام . ومجانبة المعاصى . والتواضع لله ، فلا يمن على الله بما يقوم به من دعوة إلى الدين . ولا على الناس بما يدعوهم إليه .لأن الفضل فى ذلك إلى الله وحده فضلاً عن الصبر على طاعة الله . واحتمال الأذى فى سبيله (٢)

وكل الأوامر الواردة فى أول سورة المدثر تتضمن أهدافاً سامية وغايات نبيلة

١ – فغاية القيام بالإنذار أن لا يترك أحداً ممن يخالف مرضاة الله فى عالم الوجود . إلا وينذره بعواقبه الوخيمة . حتى تقع رجفة وزلزال فى قلبه وروعه .

٢ – وغاية تكبير الرب أن لا يترك لأحد كبرياء فى الأرض إلا وتكسر شوكتها وتقلب ظهر البطن حتى لا يبقى فى الأرض إلا كبرياء الله تعالى

٣ – وغاية تطهير الثياب . وهجران الرجز . أن يبلغ فى تطهير الظاهر والباطن وفى تزكية النفس من جميع الشوائب والألوان إلى حد الكمال الذى يمكن النفس البشرية – تحت ظلال رحمة الله الوارفة وحفظه وكلئه وهدايته ونوره – حتى لتكون أعلى مثل فى المجتمع البشرى ، تجتذب إليه القلوب السليمة وتحسن بهيبته وفخامته القلوب الزائفة حتى ترتكز إليه

---

(١) سورة المدثر ١ – ٧

(٢) الرحيق المختوم ص ٨١

الدنيا بأسرها وفاقاً أو خلافاً .

٤ – وغاية عدم الاستكثار بالمنة أن لا يعد أفعاله وجهوده فخمة عظيمة . بل لا يزال يجتهد فى عمل بعد عمل ، ويبذل الكثير من الجهد والتضحية والفناء . ثم ينسى كل ذلك . بل يغنى فى الشعور بالله بحيث لا يحس ولا يشعر بما بذل وقدم .

٥ – وفى الآية الأخيرة إشارة إلى ما سيلقاه من أذى المعاندين من المخالفة والاستهزاء والسخرية إلى الجد والاجتهاد فى قتله . وقتل أصحابه ، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين بأمر الله تعالى . أن يصبر على كل ذلك بقوة وجلادة . لا لينال حظا من حظوظ نفسه بل لمجرد مرضاة ربه .

والآيات نفسها تشتمل على مواد الدعوة والتبليغ . فالإنذار نفسه يقتضى أن هناك أعمالاً لها عاقبة سوأى يلقاها أصحابها ونظراً لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لا يجازى فيها بكل ما يعمل الناس ، بل ربما لا يمكن المجازاة بجميع الأعمال.

فالإنذار يقتضى يوماً للمجازاة غير أيام الدنيا ، وهو الذى يسمى بيوم القيامة ويوم الجزاء والدين وهذا يستلزم حياة أخرى غير الحياة التى نعيشها فى الدنيا .

وقام رسول الله ﷺ فظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً لم يسترح . ولم يسكن . ولم يعش لنفسه ولا لأهله . وقام وظل قائماً على دعوة الله يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ . ولا ينؤ به عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض عبء البشرية كلها . عبء العقيدة كلها . عبء الكفاح والجهاد . فى ميادين شتى . عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً . لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوى الجليل وتلقى منه التكليف الرهيب .. جزاه الله عنا وعن البشرية كلها . خير الجزاء .

المبحث الثالث

مراحل الدعوة الإسلامية

بعد أن قبل النبى ﷺ أمر ربه له بتبليغ الدعوة **(يأيها المدثر قم فأنذر)** (١) مرت الدعوة بمراحل هامة أشار إليها النبى ﷺ بقوله :-

(بعثت إلى الناس كافة .

فإن لم يستجيبوالى . فإلى العرب .

فإن لم يستجيبوالى . فإلى قريش .

فإن لم يستجيبوالى . فإلى بنى هاشم .

فإن لم يستجيبوالى . فإلى وحدى .) (٢)

وهذا النص الشريف يعطى مؤشراً واضحاً . ودليلاً قاطعاً على أن الدعوة مرت بمراحل هامة . ممثلة فى :- دعوة النبى ﷺ نفسه واقتناعه برسالتة - **(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه)** ...... الآية (٣)

ثم دعوة عشيرته الأقرب . وهم بنى هاشم - **(وأنذر عشيرتك الأقربين)** (٤) ثم دعوة عشيرته الأكبر . وهم قريش خاصة . والعرب عامة - **(لتنذر أم القرى ومن حولها)** - (٥)

ثم دعوة العالم كله فى كل زمان ومكان - **(وما أرسلناك إلاكافة للناس بشيراً ونذراً)**- (٦)

المرحلة الأولى :- الدعوة السرية . ومدتها ثلاث سنوات .

---

(١) سورة المدثر آية ١ -٢

(٢) الشفاء : شرح على القارى جـ ١ ص ٣٠٠

(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥

(٤) سورة الشعراء آية : ٢١٤

(٥) سورة الشورى آية : ٧

(٦) سورة سبأ آية : ٢٨

أ :- أهمية هذه المرحلة من الناحية العقلية :-

يقرر العقل السليم . والفكر المستقيم أن العاقل من الناس هو الذى يظلل على شمعته حتى يظل متمتعاً بضوئها . مستفيداً من نورها سائراً على هديها . حتى يصل إلى هدفه .

كما يقرر أن الأحمق من الناس من كانت لديه جوهرة ثمينة ثم لايتحرى فى إخفائها عن أعين اللصوص . ويعتبر معتوها بحق إذا أبرزهالهم . وأعلمهم بقيمتها . لأن الجوهرة حينئذ لن تسلم من اعتداء اللصوص . وسطوهم على صاحبها مما قد يؤدى إلى قتله أو إصابته بأذى على أقل تقدير .

وليست الدعوة الإسلامية أهون على أصحابها والمؤمنين بها من تلك الجوهرة مهما كانت قيمتها .

من أجل ذلك . فهى أولى بأن يخفيها المؤمنون عن أعدائها حتى تستطيع مواجهتهم . وأن يظللوا عليها بأرواحهم وماملكت أيمانهم حتى تقوى وتصمد على مقاومة الرياح العاصفة والأعاصير المدمرة .

هذا هو منطق العقل السليم . والفكر المستقيم . لكل عمل يريد له صاحبه البقاء والنجاح .

ب :- أهمية المرحلة السرية للدعوة من الوجهة العلمية الحديثة :-

توصى الدراسات الاجتماعية الحديثة بكتمان المبادىء قبل إعلانها . [١] حتى تثبت وتستقر فى نفوس أصحابها - دراسة وتحليلاً تخطيطا وتنظيماً - وحتى يعرف كل فرد دوره الحقيقى المنوط به . ويقوم به على خير وجه . باذلاً فى سبيله النفس والنفيس . ولذلك كانت المغامرات التى يقوم بها بعض العاملين فى إطار الحركة الإسلامية .بإسم الشجاعة تارة . وباسم التحدى تارة . والعمل

---

(١) راجع الخدمة الاجتماعية والمجتمع . د/ أحمد كمال أحمد ص ١٧٩ ط القاهرة سنة ١٩٦٣ م

الإسلامى لايزال غضاً تكتنفه العقبات وتحيط به المكائد والمؤامرات .

هذه المغامرات تتعارض تماماً مع التخطيط الإسلامى المحكم . بل هو ضرب من سوء التصرف . وعدم الحكمة الذى يرفضه الإسلام .

وذلك لأن التحدى والإعلان له وقته المناسب الذى سيلجه المؤمنون راضين أم مكرهين . ماداموا يسيرون على الخط الواضح الذى سارت عليه الدعوة فى مرحلتها الأولى فى عهد النبى ﷺ

فالذين يستطيلون الطريق ويستعجلون جنى الثمرة قبل نضجها هؤلاء يتلفون الثمرة . ولا يستفيدون منها . ولو أنهم تركوها حتى تنضج . ورعوها حتى لايعتدى عليها معتد . لجنوها يانعة طيبة مفيدة . وإن لم يجنوها هم . فسيجنيها من يعهدون إليهم برعايتها . والمحافظة عليها . وهم خلفهم فى حمل الدعوة ورعايتها .إذا يجب أن يعلم المنتمون إلى الحركة الإسلامية أنهم ليسوا مكلفين بالوصول إلى الغاية أو الهدف .

ولكنهم مكلفون فقط بالسير على المنهج الدعوى السليم -**(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظه الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)** - (١) وبحماية الدعوة من أعدائها .

فإن وصلوا بعد ذلك إلى الغاية . فذلك ماكانوا يبغون . وإن لم يصلوا إليها فحسبهم أنهم التزموا بالدعوة على قدر طاقتهم . وهذا القدر وحده كاف لنجاتهم من المسئولية أمام الله تعالى . وإخراجهم من زمرة المقصرين فى الدعوة المشغولين عنها المتقاعسين عن نصرتها (٢)

مدى سرية الدعوة فى مرحلتها الأولى :-

لقد كانت الدعوة خلال هذه المرحله فى سرية تامة . فى التلقى . وفى التنفيذ

(١) سورة النحل آية ١٢٥

(٢) تقنين الدعوة : د محمد السيد الوكيل ص ١٤٨

وفى اختيار الأعوان والأنصار . وفى إعداد القادة والدعاة الذين يتحملون مهمة الدعوة والتبليغ مع النبى ﷺ

والغرض من هذه السرية :-

هو عدم المواجهة مع الأعداء . وتربية المسلمين تربية عملية منظمة حتى يتعودوا عليها منذ نشأتهم . ويكون ذلك دأبهم فى حياتهم المستقبلة .

وإذا أضفنا إلى ذلك :- أن أصحاب هذه الدعوة يؤمنون بأنهم على الحق . وأنهم مؤيدون من الله الحق . فإن ذلك يكون من أكبر الدوافع لهم على الجهر بالدعوة بعد ذلك . ولايخافون فيها لومة لائم .

فكان من الحكمة أن لايجاهر النبى ﷺ قومه بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ونبذ ماهم عليه من عبادة وما كان لهم من عادات وأخلاق لاتمت إلى المثل العليا بصلة . فقد كانت الوثنيه متأصلة فى نفوسهم . وكانوا جفاة يأنفون ويتنكرون لكل من يوجههم إلى غير ماهم عليه

ولذلك سلك بهم النبى ﷺ سبيل الدعوة المستترة إلى مبادىء الإسلام الرشيدة وكان يدعو بهذا الاسلوب كل من يثق فيهم ويطمئن إليهم . من أصحاب العقول الراجحة . والنفوس الزكية الطاهرة . الذين كانوا أقرب إليه من سواهم . وأبعد من أن يصرفهم عن الحق رياسة . أو شهرة بشجاعة . وكان يدع الذين يحتاجون إلى وقت طويل . حتى يلين شماسهم . ويكبح جماحهم . فهؤلاء كان يبتعد عن مكاشفتهم بالحق فى تلك المرحلة السريه حتى لا يكونوا معولاً للهدم . بدلاً من أن يكونوا أداة للنباء.

وكان من الطبيعى أن يخبر بهذه الدعوة أولاً أسرته وخاصته فأول ما دعا زوجه : خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وكان من الطبيعى أن تستجيب لأمرين :-

أولهما : ما تستيقنه من صدق الداعى . وأمانته . فيما يقول .

ثانيهما : ما حدث به ورقة بن نوفل حين اصطحبت سيدنا محمد ﷺ : إليه . وما أكده من أن الذى أتاه إنما هو وحى الله وما وعد به من اتباعه ومؤازرنه إذا قدر له أن يعيش إلى وقت أن يؤمر بالدعوة فكانت خديجة أول من أسلم من النساء . وصدقت بما جاءه من الله . ووازرته على أمره . وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء منه فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ كثيراً مما يكرهه : من رد عليه . وتكذيب له فيفرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه . وتصدقه وتهون عليه أمر الناس (١) ولذا قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب . لا صخب فيه ولانصب »

قال ابن هشام القصب : اللؤلؤ المجوف (٢)

ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى :- على بن أبى طالب رضوان الله وسلامه عليه وهو يومئذ ابن عشر سنين (٣)

ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد على بن أبى طالب (٤)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص٢٥٠

(٢) السابق جـ ١ ص ٢٥٠

(٣) كان مما أنعم الله به على على رضى الله عنه أنه كان فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام . إذ أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة . وكان أبو طالب ذا عيال كثير . فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه وكان من أيسر بنى هاشم ياعباس : إن أخاك أبا طالب كثير العيال . وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة . فانطلق بنا إليه فلتخفف عنه من عيال : آخذ من بنيه رجلاً . وتأخذ أنت رجلاً فنكلهما عنه فقال العباس : نعم فانطلقا حتى أتيا أباطالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فقال لهما أبو طالب :- إذا تركتما لى عقيلاً فاصنعا ماشئتما . فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه وأخذ العباسى جعفراً فضمه إليه . فلم يزل على مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً . فاتبعه على رضى الله عنه . وآمن به . وصدقه ولم يزل جعفر عند العباسى حتى أسلم . واستغنى عنه . راجع سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٤) السابق جـ ١ ص ٢٥٦

ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافه واسمه عتيق . وقال ابن إسحاق :- فلما أسلم أبوبكر رضى الله عنه . أظهر إسلامه ودعا إلى الله رسوله ﷺ

وكان أبوبكر رجلاً مألفاً لقومه محبباً سهلاً . وكان أنسب قريش لقريش . وأعلم قريش بها . وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلاً تاجراً . ذا خلق . ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه . وتجاربه . وحسن مجالسته فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه (١)

كما يقول الحافظ ابن كثير : (وأول من أسلم من الرجال الأحرار : أبوبكر الصديق . وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذكرهم . إذ كان صدرا معظماً ورئيساً فى قريش مكرماً وصاحب مال . وداعية إلى الإسلام . وكان محبباً متألفاً يبذل المال فى طاعة الله ورسوله (٢) وبجهوده ورأيه ومقدرته على

---

(١) السيرة النبوية لإبن هشام جـ ١ ص ٢٥٨ وذلك لكونه أقدر الدعاة على التأثير آنذاك . ونستطيع أن نتعرف على مواصفات هذه الشخصية من العناصر التالية :-

أ : خلقه كان رجلا مألفا لقومه < محببا سهلا .

ب : ثقافته : كان أنسب قرشى . وأعلم قرشى بها . وبما كان فيها من خير وشر .

جـ : مركزه الإجتماعى وعمله : وكان رجلا تاجراً . وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر .

ومن خلال هذه المواصفات نحرص على أن توجد لدى الداعية اليوم .

فالخلق المحبب السهل هو الذى يضمن القدرة على النفاذ لآخرين . وهو الذى يفتح له القلوب ولو كانت مستعصية . وهو الذى يضمن البعد عن ردود الفعل فى حالة الموقف السلبى من الدعوة والثقافة وكلتاهما ليست بأقل شأنا من الخلق . وليس كل نوع من الثقافه ذات الخبرة بالمجتمع واتجاهاته وميوله . والثقافة التى تعرف نفوس الناس ومنازعهم ومشاربهم وعواطفهم . هى التى تكون مفتاح التحرك للداعية . وباب الولوج إلى قلب المدعو .

والمركز الاجتماعى للداعية يجعل له أذ انا صاغية من الناس . فترفع الداعية عن الحاجة . وذل السؤال . والتطلع إلى ما فى أيدى الناس . وهو الذى يكسبه الاحترام فى المجتمع أعلى قيمة : هى المال والشهرة . وقد وجهنا لذلك النبى ﷺ بقوله : - ازهد فى الدنيا يحبك الله . وازهد عما فى أيدى الناس يحبك الناس.

واذا كان المركز الاجتماعى بطبيعته ذا صلة وثيقة بالناس . فهذا أدعى إلى التأثير فيهم . إذ أن العلاقة تبدو طبيعية وغير متكلفة . ولا يحتاج الداعية ليتصنع سببا لاتصال بهم .

- المنهج الحركى للسيرة النبوية محمد منير الغضبان ص ٢٢ -٢٣ .

(٢) البداية والنهاية : لابن كثير جـ ٣ ص ٢٦ .

الإقناع . أسلم قادة الدعوة . ورواد الحركة الإسلامية الأولى :-

عثمان بن عفان . والزبير بن العوام . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص .

وطلحة بن عبيد الله . وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ . حين إستجابوا له . فأسلموا وصلوا . وكان رسول الله ﷺ يقول : - ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوه (١) . ونظر تردد . إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافه ما عكم (٢) حين ذكرته له . وما تردد فيه ، وأعقب هؤلاء النفر التسعة مجموعة أخرى من المسلمين السابقين إلى الإسلام وهم :-

أبو عبيدة إبن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذ الرسول ﷺ من داره الواقعة على الصفا مخبأً سرياً للحركة الإسلامية ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد بن عمرو وإمرأته فاطمة أخت عمر بن الخطاب وأسماء وعائشة إبنتا أبى بكر . وخباب بن الأرت وعمر بن أبى وقاص ... إلخ

يلاحظ أن أول من أسلم كان من أحداث الرجال ، أو من لدات الرسول ﷺ . أو ممن لا يكبره فى السن كثيراً . أما الشيوخ المسنون فلم يستجيبوا لدعوته استكباراً وأنفة فللسن عند العرب منزلة . والعرف أعمق جذوراً فى نفوس المسنين .

وكان من العار على المسن تغيير ما هو عليه وما ورثه عن آبائه وأجداده (٣) .

ولم يكن عدد المسلمين قد جاوز الأربعين شخصاً فى هذه الفترة . هم كل من أسلموا خلال هذه المدة - ثلاث سنين - وكل ذخيرة الإسلام وعدته للمستقبل .

---

(١) الكبوة : التأخر وعدم الإجابة بسرعة

(٢) عكم : انصاع وذهب راجع السيرة النبوية لابن هشام ط ص ٢٥٩ .

(٣) دراسة فى السيرة النبوية : د عماد الدين خليل ص ٦٢

وهى مدة طويلة كان من الممكن إسلام أضعاف أضعاف هذا العدد لو أن الرسول ﷺ قام بالدعوى فيها جهاراً ، ولكنه لم يكن يومئذ قد كلف وجوب الجهر بالإسلام وبالتبليغ إلا لمن وجد فى قلبه ميلاً للإسلام ، (١) ولهذا لم يتجاوز المسلمون يومئذ العدد المذكور القليل بالنسبة لسكان مكة - الذين كانوا عدة آلاف - والكثير فى اتحاده وإيمانه وقوة عقيدته وتضحيته فى سبيلها (٢) .

وقد أمر الرسول ﷺ أتباعه بالتزام الحيطة والحذر والتخفى . وعدم الإعلان عن الإسلام إلى أن يقضى الله أمره . وكانوا إذا أرادوا الصلاة خرجوا فرادى إلى الشعاب والبرية يصلون على حذر . ولهم عيون ترى القادم لتنبيه المصلين عليه . فلا يؤخذوا على غرة ويظهر أمرهم للناس . وقد بقوا على ذلك طوال مدة الاستخفاء (٣) .

ويظهر هذا واضحاً : فى قصة إسلام على بن أبى طالب رضى الله عنه حيث وجد النبى ﷺ والسيدة خديجة يصليان فقال : ما هذا يا محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ :- دين الله اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته وتكفر باللات والعزى . فقال على : هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم .

فلست بقاضى أمراً حتى أحدث به أبا طالب ، وكره رسول الله ﷺ أن يفش عليه سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له : يا على إذا لم تسلم فاكتم ... فمكث علىٌ تلك الليلة حتى جاء فقال : ما عرضت على يا محمد ؟ فقال رسول

---

(١) لم يرد نص صريح فى القرآن الكريم يأمر النبى ﷺ بإخفاء الدعوة عن العامة فى بدايتها إلا أن واقع الدعوة فى تلك المرحلة كان يتطلب ذلك . وهذا يدل على أن سرية الدعوة خلال الثلاث سنوات الأولى كانت اجتهاداً من النبى ﷺ أقره عليه ربه سبحانه وتعالى كما أن هذا يؤكد دور القيادة فى وجوب التخطيط للدعوة ودراسة الظروف التى تمر بها لتجنب المآزق والأزمات .

(٢) تاريخ العرب فى الإسلام : د جواد على ص ١٥٨ ودراسة فى السيرة النبوية : د عماد الدين خليل ص ٦٣ .

(٣) السابق ص ١٥٩ و ص ٦٣ .

الله ﷺ: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد . ففعل على وأسلم فمكث على يأتيه على خوف من أبى طالب وكتم على إسلامه ولم يظهره (١) .

وكان النبى ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب مستخفياً من أبيه ومن جميع أعمامه . وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان ، فقال لرسول الله ﷺ يا إبن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال أى عم . هذا دين الله وملائكته ، ودين رسله . ودين أبينا إبراهيم بعثنى به الله رسولاً إلى العباد ، وأنت أى عم : أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه . فقال أبو طالب أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين أبائى ، وماكانوا عليه . ولكن الله لا يخلص (٢) إليك بشىء تكرهه مابقيت .

وذكروا أنه قال لعلى : أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال : يا أبت ، آمنت بالله وبرسوله ، وصدقت بما جاء به وصليت معه لله واتبعته ، فزعموا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه (٣) .

وقال محمد بن كعب : وكان على بن أبى طالب يكتم إيمانه خوفاً من أبيه ، حتى لقيه أبوه . قال أسلمت ؟ قال نعم . قال : وازر ابن عمك وانصره (٤) .

وكان سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمربن ابن الخطاب يقول : استخفينا بالإسلام سنة ما نصلى إلا فى بيت مغلق

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٤١٤ والسيرة النبوية لابن كثير جـ ١ ص ٤٢٨

(٢) أى لايصل إليك .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٢٦

، أو شعب خال ينظر بعضنا لبعض (١) .

كما روى الحافظ إبن كثير عن عفيف شقيق الأشعث بن قيس لأمه أنه قال :

كنت أمرءاً تاجراً ، فقدمت من أيام الحج ، وكان العباس بن عبد المطلب امرءاً تاجراً . فأتيته أبتاع منه وأبيعه . فبينما نحن إذ خرج رجل من خباء ، فقام يصلى تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت تصلى . وخرج غلام فقام يصلى معه ، فقلت يا عباس ما هذا الدين ؟ ما ندرى ما هو ؟ فقال :

هذا محمد بن عبد الله . يزعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه . وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمه على بن أبى طالب آمن به . قال عفيف فليتنى كنت آمنت يومئذ فكنت أكون ثانياً (٢) .

كما يحدث ابن إسحاق كيف أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم . وعابوا عليهم ما يصنعون . حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بعير (٣) . فشجة فكان أول دم هريق فى الإسلام (٤) .

وفى رواية للبلاذرى : أن النبى ﷺ وأصحابه الكرام كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا فى الشعاب فصلوا فرادى ومثنى فبينما رجلان من المسلمين يصليان فى إحدى شعاب مكة ، إذ هجم عليهما رجلان من المشركين كانا

---

(١) انساب الأشراف للبلاذرى جـ ١ ص ١١٦ تحقيق محمد حميد الله ط دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .
(٢) السابق جـ ٣ ص ٢٥
(٣) لحى بعير : العظم الذى على فخذه
(٤) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٢٦٥ .

فاحشين – فناقشوهما ورموهما بالحجارة ساعة حتى خرجا فانصرفا (١) هذان الحدثان من الاعتداء على المسلمين خلال صلاتهم فى الشعاب وأمثالهما . وإن بدوا وكأنهما عبث من عبث الصبيان . لكنهما تركا أثراً فى نفوس جهال مكة ، وحمل الرسول على نصح المسلمين بالتخفى والتزام البيوت مدة من الزمن حتى تستقر الأحوال وتهدأ الأعصاب .

وهكذا تكون الصف الأول من رجال الدعوة الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله ، فقامت على أكتافهم دعوة الحق راسخة قوية ، وإرتوت بتضحياتهم شجرة الإسلام ، هؤلاء السابقون الأبرار قاموا صفاً واحداً خلف قائدهم العظيم على استعداد لمتابعته فى أى سبيل ومصاحبته إلى أية نهاية .

وبالرغم من أن سرية الدعوة فى هذه المرحلة حالت دون انتشارها وحصرها فى هذه الدائرة الضيقة ممن آمنوا بها . إلا أن هذا الطور من الدعوة قد جعل من هذه الحفنة الصغيرة . وحدة متماسكة البنيان . متحدة الشعور والوجدان ، فهم على قلب رجل واحد . لا يختلفون حول أمر ، ولا يتفرقون عند رأى . وقد ألفت العناية الإلهية بين قلوبهم . ووحدت الأهداف السامية بين أرواحهم . لأنهم ما أرادوا بإيمانهم جزاءً ولا شكوراً ، ولا قصدوا بدعوتهم رياءً أو ظهوراً . كانت هذه الوحدة الشاملة فى الأهداف . والوحدة المتماسكة فى الصفوف . والوحدة الجامعة للأرواح والقلوب ، هى أكبر ضمان لقيام الدعوة على أمتن أساس وأعظم حماية لها ضد الخطوب والأحداث . وأقوى دلالة على ما سوف تحققه لها الأيام من ظهور وإنتشار على يد أعظم قائد فى تاريخ الإنسانية . هو سيدنا محمد ﷺ ولقد صاغت القيادة الإسلامية الأولى رجال الدعوة وحماة الإسلام الأول أعظم صياغة وربتهم أكمل تربية . فكانوا صورة دعوتهم الحقة النيرة فى فكرهم وسلوكهم وعملهم وجهادهم .

---

(١) السابق جـ ١ ص ١١٧ .

كانوا فى جهادهم وأجتهادهم يصدرون عن المدرسة النبوية فى سمو الغاية ونيل السيلة (١) . وتوافرت فيهم شروط أهلتهم تأهيلاً عالياً لحمل الرسالة ونشرها ، فى آفاق المعمورة . وتحقق بفضل الله عز وجل . ثم بصدق إيمانهم وإخلاص جهادهم .

ذلك المد الإسلامى الكبير الذى يعد بحق معجزة التاريخ كانت غايتهم إعلاء كلمة الله وإقامة شرعه فى الأرض ونفاذ أحكامه . ووسيلتهم فى ذلك : تربية النفوس على الطاعة وتزكيتها بالعمل الصالح . وأخذها الدائب بالإعداد ، والاستعداد . ثم العمل المتواصل والكفاح المستمر لإزالة القوى الطاغية المعادية التى تعيق إقامة دين الله فى الأرض .

{ دار الأرقم بن أبى الأرقم وأهميتها :}

ولما دخل فى الإسلام عدد يربو على الثلاثين أصبح ضرورياً أن يتخذ لهم النبى ﷺ مكاناً يعلمهم فيه أمور دينهم ويعدهم لما يستقبلهم من التبشير بالإسلام والدعوة إليه . ولم يكن ميسوراً أن يكون هذا المكان بمأمن من الوثنيين أعداء الإسلام إذا كان داخل مكة لذا فقد اختار الرسول ﷺ داراً خارج مكة يملكها الأرقم بن أبى الأرقم . (٢) وقد أحيط مكانها بالسرية التامة وكانوا يختلون إليهم سراً وفى حذر شديد ويستمعون فيها إلى القرآن الكريم ونصائح الرسول وتوجيهاته التى تعمق فى نفوسهم جذور الإيمان .

ولهذا نستطيع أن نقول : إن هذه الدار هى أول مدرسة للدعوة والدعاة فى الإسلام . وقد تخرج فيها أعظم قادة المسلمين ودعاتهم (حيث اختار النبى ﷺ

---

(١) لمحات فى الثقافة الإسلامية : د عمر عوده الخطيب ص ١٤٧ .

(٢) حبس الأرقم بن أبى الأرقم المخنومى الدار على ذريتة . ولما تولى أبو جعفر المنصور ١٣٦ ه - ١٥٨ ه الخلافة أجبرهم على بيعهما . ثم وهبها لابنه المهدى . وهذا . وهبها لزوجه الخيرزان فاهتمت وضمت إليها دوراً بجوارها وبنت عليها مسجداً عرف بمسجد المختبى أودار الخيرزان - السيرة المحمدية الخالده - العصر المكى - أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ص ١٠٣ ط ١ طنطا ١٩٦٠ م .

الأشخاص الذين توسم فيهم الاستجابة للدعوة . ثم تعهدهم بعيداً عن المجتمع وثقافته بالتربية والإعداد) (١)

بعيداً عن جاذبية المجتمع التى تضغط دائما على المبادىء فى مهدها لتموت . ولذا فقد كان النبى ﷺ – يتخير الأشخاص أولاً . ثم ينبئهم عن الضغط الإجتماعى حتى تسربت مبادىء الإسلام إلى المجتمع كالنور يقهر الظلام رويداً رويداً (٢)

ويؤكد كثير من الباحثين . أن خشية النبى ﷺ من شدة معارضة قريش . كانت السبب الذى من أجله اتخذ ﷺ مقره فى دار الأرقم بن أبى الأرقم . وكانت هذه الدار فى مركز متوسط يؤمها الحجيج والغرباء . وقد استطاع ﷺ أن يواصل فيها نشر مبادىء الإسلام بين الذين كانوا يقصدونه فى هدوء وطمأنينة .

وتعد الفترة التى قضاها ﷺ فى هذه الدار (٣) فتره هامة فى الدعوة الإسلامية بمكة . حتى إن كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم فى الإسلام بتلك الأيام التى كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم . (٤)

---

(١) الدعوة فى عهدها المكى : ص ١٩٩ .

(٢) السابق ص ١٩٠

(٣) لا يوجد فى كتب التواريخ والسير والأخبار . تاريخ مضبوط للوقت الذى مكثه الرسول ﷺ ، والمسلمون فى دار الأرقم . فالروايات فى ذلك مضطربه . ولكن المرجح على مايبدو من فحصها . أنه كان فى أواخر السنة الثالثة . أو فى السنة الرابعة من البعثة النبوية الشريفة أى فى أواخر عهد السرية فى الدعوة . كما تضاربت الروايات فى مدة الإستخفاء فى دار الرقم . فهناك من يجعلها شهراً فقط ، وهناك تضارب أيضا فى كيفيه الإستخفاء . هل كان استخفاءً تاماً من الناس فى تلك الدار فلايخرج منها أحد ؟

أو كان استخفاء فى أوقات قصيرة من النهار . وهو مدة اجتماعهم بالنبى ﷺ متكرر لأجل الصلاة وتوضيح الإسلام والتبشير به والدعوة فى الليل .

-تاريخ العرب فى الإسلام : د . جواد ص ١٦ – ٦٦ ودراسة فى السيرة النبوية : د . عماد الدين خليل ص ٦٤ .

(٤) الدعوة إلى الإسلام : أرنولد ص ٣٧ – ٣٨ .

أهمية هذه الدار وضرورتها للدعوة الإسلامية :-

كانت هذه الدار مهمة وضرورية لأسباب كثيرة منها :-

أولاً : حرص الرسول ﷺ على إرساء مبادىء الدين الجديد فى نفوس أصحابه الكرام المنتسبين إلى مدرسة الأرقم يتلو عليهم آيات ربه التى كان الوحى ينزل بها تباعاً

ثانياً : حرص الصحابة على التعلم . والتقاط كل ما يبلغهم عن ربهم سبحانه وتعالى . حتى كان الرجلان المشتركين فى تجارة أو نحوها يتناوبان فى مجالس العلم . ويخبر الحاضر منهم الغائب بماسمعه من العلوم فى نوبته فيتعلم منه (١)

ثالثاً : ليصوغ عقولهم فى قوالب من الأفكار النيرة تتفق وهداية الله إلى الخير والحق .

رابعاً : ليصهر قلوبهم فى بوتقة الإيمان الحق قولاً وعملاً .

خامساً : ليصب فى وجدانهم طاقات من العزائم التى تفل الحديد .

سادساً : ليقوى من عزمهم كى يصمدوا أمام الجبال الشوامخ والعواصف العاتية .

٥ - تعريف المسلمين ببعضهم مما يقوى إيمانهم ويزيدهم تثبيتاً . وقد وصف الأستاذ محمد لبيب البتنونى فى رحلته إلى الحجاز سنة ١٩١٠م (٢) دار الأرقم بن أبى الأرقم . فذكر أنها :-

تقوم الآن فى زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا . ولها باب يفتح إلى الشرق يفضى إلى فناء طوله ثمانية أمتار . وعرضه أربعة وعلى اليسار إيوان مسقوف . عرضه نحو ثلاثة أمتار وعلى اليمين باب يدخل منه إلى غرفة

---

(١) صحيح البخارى كتاب العلم جـ ١ ص ١٨٥

(٢) السيرة المحمدية الخالدة : أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ص ٣٢.

مساحتها تقرب من مساحة الفناء وفى هذه الدار تخرج أبطال الإسلام بأبطال العالم . وأعظم من أنجبت الإنسانية من العلماء النابغين . والقواد الفاتحين الذين أنشأوا أطهر دولة على وجه الأرض . وأحلوا العدل والتواضع . مكان الظغيان والجبروت . فانهار بعدلهم طغيان الأكاسرة والقياصرة . وذل لتواضعهم جبروت الفرس والروم . أفما يجب على المسلمين أن ينشئوا مكانها أكبر جامعة إسلامية تعيد لها سيرتها الأولى وتحيى تلك الذكريات الكريمة وتجعل مكة أم القرى علماً . كما هى أم القرى ديناً وفضلاً .؟.

سابعاً : تهيئة الفئة المؤمنة لمرحلة تالية أهم مما هم فيه هى مرحلة الجهر بالدعوة وهى مرحلة تتطلب كثيراً من الحكمة والتخطيط الذى يحمى الدعوة والداعية . ويرغب المدعو فى قبولها والتضحية فى سبيلها .

ثمار دار الأرقم

وقد تحقق بدار الأرقم كثير من الثمار والأهداف التى أفادت الدعوة فيما بعد منها : -

١ - تعليم الصحابة أصول الإسلام . وتعاليمه وتقريرها فى نفوسهم وتدريبهم على تحمل المسئولية الكبرى الملقاة على عواتقهم

٢ - اجتماع المسلمين للتشاور فى شئونهم والنظر فى أحوالهم ومعالجة موقف المشركين بالنسبة إليهم .

٣ - توجيههم إلى بث الدعوة والاطلاع على نشاطهم .

٤ - وقاية المسلمين من الاصطدام بالمشركين خلال اجتماعاتهم حتى تتوفر لهم الحرية الكافية لمناقشة قضاياهم .

الحكمة من السرية فى المرحلة الأولى بوجه عام :-

أما الحكمة من السـرية فى المرحلة الأولى بوجه عام للدعوة الإسلامية فتظهر فى :-

١ - أن النبى ﷺ بدأ بدعوة تغاير ما كان عليه قومه تماماً

٢ - أنه يعتبر فى نظر كبار قريش كأبى سفيان وأبى جهل وأبى لهب تابعا لا متبوعا

٣ - أن الدعوة كانت فى مهدها الأول تبحث عمن يؤمن بها ويساندها فلا بد من إتاحة الفرصة للنظر فى الدعوة وبحثها على مهل ليكون الدخول فيها عن اقتناع .

٤ - أن السرية فى هذه المرحلة لا تعطى المشركين فرصة ليتجمعوا ضدها وهى مازالت فى مهدها الأول .

وكل هذه الأسباب تؤكد أن الدعوة بدأت سرية لا جهرية .

ومع هذا ينبغى أن نؤكد :

أ : أنه مع سرية الدعوة . فقد ترامت الأنباء إلى قريش . فلم تعرها اهتماماً . ولعلها حسبت محمداً ﷺ أحد أولئك الديانين الذين تكلموا فى الألوهية وحقوقها .

فقد كانت ظاهرة الحنيفية منتشرة فى المجتمع المكى فى أمثال :

زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل . وأمية بن أبى الصلت . ولا تهتم مكة بمثل هذه الأحداث . وهؤلاء الناس طالما أنهم لا يتعرضون لعقائدها وأصنامها . فقد كان رسول الله ﷺ يتحنث الليالى ذوات العدد قبل البعثة ويجاور فى غار حراء ومع ذلك لا تجد قريش غضاضة فى ذلك .

وحسبت أن الإسلام مثل هؤلاء الحنفاء الذين اعتزلوا عبادة الأصنام . بل

يمكن القول : إن قريشاً كانت تهتم بالحنيفين أكثر مما اهتمت بالمسلمين فى المرحلة السرية . وذلك لأن الحنفاء كانوا يعلنون شكهم بأصنام قريش . وأوثان العرب . بينما لم يعلن المسلمون موقفهم تجاهها

لم يكن إذاً لملاحظة قريش بعض هذه الظواهر الغريبة مايثير غضبها طالما أن القوم مكتفون بأنفسهم . منكفئون على ذواتهم .

فلم نسمع فى هذه المرحلة عن أى صدام وقع بين هذا المجتمع الإسلامى الناشىء بين المجتمع الجاهلى (١) ، فالفكرة غير معلنة إلا لمن يرجى انضمامه لهذا التجمع الإسلامى القائم . وليست الدعوة المعلنة هدفاً قائماً فيها . بل لا يتدخل المسلمون فى أى شأن من شؤون غيرهم بنقد أو مواجهة أو مخالفة ظاهرة . إلا أن قريشاً توجست خفية من الدعوة والداعية وذيوع خيره . وامتداد أثره . وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته .

واستمر هذا الطور السرى للدعوة ثلاث سنين . ثم نزل الوحى يكلف الرسول ﷺ بمعالنة قومه . ومجابهة باطلهم . لمهاجمة أصنامهم جهراً . (٢)

ب : كما ينبغى أن نؤكد أن سرية الدعوة فى هذه المرحلة ليس معناها أن الإسلام فيه ظاهر وباطن . أو أن فيه أموراً تظهر لأناس وتخفى عن آخرين .

لأن الدعوة تحتاج إلى بصيرة وحكمة وعلم . :- **(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)** (٣) – وقوله ﷺ :- **(من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله – عز وجل – يعطى . ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)** . (٤)

---

(١) اللهم إلا القليل الذى لا يقام له وزن فى أحداث التاريخ – راجع صفحة ٢٦٤

(٢) فقه السيرة : الشيخ محمد الغزالى . ص ١٠٢

(٣) سورة يوسف آيه : ١٠٨ .

(٤) صحيح البخارى كتاب العلم باب من يرد الله به خيرا يفقه فى الدين جـ ١ ص ٢٥٨ .

قوله – وإنما أنا قاسم – إنى أقسم بينكم ما أوحى إلى مما أمرت بتبليغه إليكم . ولا أخص به بعضاً دون بعض – والله يعطى كل واحد منكم من الفهم على قدر ماتعلقت به إرادته تعالى .

فالتفاوت فى أفهامكم منه سبحانه وقد كان بعض الصحابه يسمع الحديث . ولا يفهم منه إلا الظاهر الجلى . ويسمعه آخر منهم أو من القرن الذى يليهم . أو من أتى بعدهم فيستنبط منه مسائل كثيرة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فالرسول ﷺ يلقـــى ما أوحى إليه على حسب ما سنح له . ويسوى فيه ولا يرجح بعضهم على بعــض . والله يعطـــى كلا منهم من الفهم على قدر ما أراد الله . (١) إذاً فهناك فرق بين تعاليم الإسلام بالنسبة لما يقال عنه : سر وعلن . أو ظاهر وباطن . وبين تعليم الإسلام وما فيها من تفاوت فى الفهم بين الناس كل على قدر فهمه وفقه . فتعليم الإسلام فيه تباين من الناس حسب فهم كل منهم ومقدرته على التحصيل .

ج :– كما ينبغى أن نؤكد على أن سرية الدعوة فى هذه المرحلة لا يؤخذ منها دليل على مشروعية إقامة تكتلات سرية للدعوة فى العصر الحديث لأنه ثبت أن التخطيط السرى أضر بالدعوة ولم يفدها بشىء .

(المرحلة الثانية)

دعوة الأهل والأقارب :–

تبين لنا من خلال الحديث عن المرحلة الأولى للدعوة وهى المرحلة السرية أن الصف الأولى من أصحاب النبى ﷺ كانوا أروع صورة لما يجب أن يكون عليه رجال الدعوة . من وحدة فى الكلمة . وإيمان بالهدف. وطاعة للقيادة . ولذلك كانوا رغم قلتهم . يملكون من القوة الكامنة ما مكنهم بعد قليل من الجهر

---

(١) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى الشيخ عبد الله الشرقاوى ص ٨ ط الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م .

بالدعوة فى وجه مجتمع فاسد شديد التعصب عميق التعلق بجاهليتة وآثامه .

تكون الصف الأول للدعوة . وتم إعداده .لحمل مسئولية القيادة والتوجيه فيها . فكان لابد من الانتقال بالدعوة إلى دائرة أوسع . وكان لابد لإيصال الدعوة إلى هذه الدائرة . من الجهر بها فى الحدود التى تتفق مع التخطيط الموضوع لها . وقد بين الله تعالى لنبيه هذه الحدود حينما أوحى إليه بأمره فى قوله سبحانه **(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)** (١) **(وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفى جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم)** (٢)

عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: عرفت أنى إن بادأت بها قومى رأيت منهم ما أكره ، فصمت فجاءنى جبريل عليه السلام فقال يا محمد : إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك بالنار . قال : فدعانى فقال يا على : إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين . فاصنع لنا يا على : شاة على صاع من طعام . وأعد لنا عس لبن . ثم اجمع لى بن عبد المطلب . ففعلت . فاجتمعوا له يومئذ وهم أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه : أبوطالب وحمزة والعباس وأبولهب الكافر الخبيث فقدمت إليهم تلك الجفنة فأخذ رسول الله ﷺ منها حزية (٣) فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها .

وقال : كلوا بسم الله . فأكل القوم حتى نهلوا عنه . ما نرى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل ليأكل مثلها . ثم قال

رسول الله ﷺ : أسقهم يا على . فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا

---

(١) سورة الحجر آية : ٩٤

(٢) سورة الشعراء أيه ٢١٤ - ٢١٧

(٣) أى قطعة .

جميعا . وأيم الله إن كان الرجل ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبولهب - لعنه الله - قائلاً - لهدما سحركم صاحبكم . فتفرقوا . ولم يكلمهم رسول الله ﷺ . ولما كان من الغد قال رسول الله ﷺ عد لنا بمثل الذى كنت صنعت لنا من الأمس . من الطعام والشراب . فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم . ففعلت . ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه . وأيم الله إن كان الرجل ليأكل مثلها . ثم قال رسول الله ﷺ : أسقهم يا على فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا . وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبولهب - لعنه الله - إلى الكلام . فقال : لهد ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فلما كان من الغد . قال رسول الله ﷺ : يا على عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب . فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم ففعلت . ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس . فأكلوا حتى نهلوا عنه . ثم سقيتم من ذلك القعب حتى نهلوا وأيم الله إن كان الرجل ليأكل مثلها وليشرب مثلها ثم قال رسول الله ﷺ: يابنى عبدالمطلب إنى والله ما أعلم شاباً من العرب . جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة (١) كما روى مسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية . **(وأنذر عشيرتك الأقربين)** دعا رسول الله ﷺ قريش فعم وخص . فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بنى هاشم . أنقذوا أنفسكم من النار .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٣٩ والوفا بأحوال المصطفى لابن الجورى جـ ١ ص ١٨٤ ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م تحقيق مصطفى عبد الواحد ودلائل النبوة للحافظ أبى نعيم الأصبهانى ص ٣٦٤ ط دار الوعى بحلب سوريه

يامعشر بنى عبد المطلب . أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار . فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئاً (١) كما يروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه – وأنذر عشيرتك الأقربين فقال : يامعشر قريش اشتروا أنفسكم . لا أغنى عنكم من اللة شيئاً . يابنى عبدالمطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبدالمطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت رسول الله سلينى ماشئت من مال . لا أغنى عنك من الله شيئاً (٢) هذه الصيحة العالية الأولى هى غاية البلاغ . فقد فاصل الرسول ﷺ قومه على دعوته . وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة الصلة بينه وبينهم . وأن عصبية القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله (٣) ثم دعاهم

الرسول ﷺ مرة ثانية فى موقف آخر . فقال :- « الحمد لله . احمده واستعينه . وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله . والله الذى لا إله إلا هو . إنى رسول الله إليكم خاصة . وإلى الناس عامة . والله لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن بما تعلمون وإنها لجنة أبداً . أو لنار أبداً .

فقال أبوطالب : مأحب إلينا معاونتك . وأقبلنا لنصيحتك . وأشد تصديقاً لحديثك . وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون . وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم إلى ماتحب . فامض لما أمرت به .

فوالله لا أزل أحوطك وأمنعك . غير أن نفس لاتطاوعنى على فراق دين عبد

---

(١) صحيح الترمزى كتاب التفسير باب ٢٧ ومن سورة الشعراء .

(٢) صحيح البخارى : كتاب التفسير جـ ٢٨ ص ١٠

(٣) فقه السيرة للغزالى ص ١٠٣ .

المطلب ، فقال أبولهب : هذه والله السوأة خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم .
فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا (١)

ويلاحظ أن النبى ﷺ جمع أصول الدعوة الإسلامية فى هذا البيان وتتمثل هذه الأصول فى :-

١ - الإيمان بالله الواحد الأحد . فى قوله ﷺ : الحمد لله أحمد ه وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له .

٢ - الإيمان بالرسول ﷺ . فى قوله : إن الرائد لا يكذب أهله والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة . وإلى الناس عامة .

٣ - الإيمان باليوم الآخر . فى قوله ﷺ : والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن بما تعملون . وإنها لجنة أبداً ، أو لنار أبداً .

٤ - كما يلاحظ من هذا البيان مدى حرص أبى طالب على النبى ﷺ وتأييده له ولدعوته . ولما تأكد النبى ﷺ من تعهد أبى طالب لحمايته ونصرته وهو يبلغ الدعوة وينشرها . انتقل ﷺ بالدعوة من العشيرة الأقرب إلى العشيرة الأكبر . حيث كان الإعلان عاماً على جبل الصفا بأعلى مكة فقسم وخص وحضر الدعوة ممثلوا قريش جميعاً . ودعاهم إلى الإسلام والنصرة ، فقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت **(وأنذر عشيرتك الأقربين)** صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر . يابنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطيع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش . فقال : ارأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ماجربنا عليك إلاصدقاً .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٩٠ .

قال فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبولهب تباًلك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت **(تبت يدا أبى لهب)** (١) وعن قبيصة بن مخارق . وزهير بن عمرو قال : لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين صعد النبى ﷺ رخضة من جبل على أعلاه حجر . فجعل ينادى يا بنى عبد مناف أيضا . أنا نذير . وإنما مثلى ومثلكم . كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله . رجاء أن يسبقوه فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه (٢)

وفى رواية أخرى يقول : **(يا بنى قصى . يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف . أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد)** ويوخذ من هذه النصوص الشريفة أمور كثيرة منها :-

١ - أن النبى ﷺ وصل لقومه الدعوة كما أمره الله تعالى .

٢ - أنه جمعهم بأسلوب علمى غاية فى الذوق الرفيع والأدب الجم .

٣ - أقررهم بثقتهم فيه .

٤ - أنهم اعترفوا له ﷺ بالصدق فى ماضيه وحاضره

٥ - أنهم تكبروا وأعرضوا ولووا رؤسهم لما دعاهم ﷺ إلى دين الله تعالى . دون نظر منهم أو تفكير . مع تاكيده ﷺ . **(إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا)** (٣)

فلماذا رفضوا الدعوة بلا نظر . أو تفكير ؟.

إنه التعصب لفكر الأباء والأجداد . والخوف على المكانة والمنزلة بين العرب . والكبر والإستعلاء .

٦ - كما أن هذه النصوص كلها تبين بكل وضوح : مدى تقبل الرسول ﷺ

---

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير

(٢) صحيح مسلم كتاب التفسير

(٣) سورة سبأ أيه ٤٦ .

للأمر الإلهى بنشر الدعوة .

وكيف بلغ هذا الأمر لعشيرته الأقربين . ونفض يديه الكريمتين من أمرهم . ووكل موقفهم وشئونهم إلى ربهم . وبين لهم أن قرابتهم له لاتنفعهم شيئاً إذا لم ينفعهم عملهم وأنه لايملك لهم من الله شيئا وهو رسول الله ﷺ هذا هو الإسلام فى صفائه : إنه ينفى الوساطة بين الله وعباده . حتى ولو كانوا أقرباء إلى رسول الله ﷺ مالم يكونوا مسلمين . (١)

٧ - كما تبين هذه النصوص بكل وضوح كذلك . أن الدعوة انتقلت من المرحلة السرية إلى المرحلة العلنية بأمر من الله تعالى لرسول ﷺ **(فاصدع بما تؤمر) - (وأنذر عشيرتك الأقربين)** .

فثبت أن الدعوة تسير بأمر الله ورعاتيه وحفظه .

أما لماذا اعترض أبو لهب بالذات وهو عم الرسول ﷺ ؟! لقد قالها ليشعر بأنه انتقم لنفسه من محمد ﷺ فقد قيل : إن أبا طالب لاحى أبا لهب فقعد أبو لهب على صدر أبى طالب فجاء النبى ﷺ

فأخذ بضبعى أبى لهب فضرب به الأرض . فقال له أبو لهب :

كلانا عمك . فلم فعلت بى هذا ؟ والله لا يحبك قلبى أبداً وكان ذلك قبل النبوة (٢)وهو إن كان منطقاً صبيانياً غير أنه مقبول فى وسط قوم يتناحرون على الشرف والكرامة . ولهم مفاهيم خاصة لمعنى الشرف والكرامة . لقد خبأها أبو لهب فى صدره زمناً طويلاً . حتى جاءت لحظة التحويل العظيم من الجاهلية بكل مفاهيمها . إلى الإسلام بنورانيته الجليلة . فلم يجد أبو لهب فى صدره غير الغل القديم . فنافس الدعوة . وطمس قلبه . وأعمى عينه . فكانت هذه واحدة من أسباب كفره ومجابهتة للدعوة الإسلامية .

---

(١) الدعوة فى عهدها المكى : د . رؤف شلبى ص ٣١٩ .

(٢) فتح البارى جـ ١٨ ص ٣٩٦ .

وظل الرسول ﷺ مستمراً فى دعوته لم يبال بما واجهه من إعراض وسخرية . ولم تصدمه هذه النتيجة المؤلمة لأنه إنما يدعو إلى الله . ويقصد بدعوته وجهاده وجه الله وحده .وسواء لديه بعد ذلك أقبل الناس إليه أم أعرضوا عنه .

وهكذا استمر ﷺ يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً . لا يصرفه عن ذلك صارف . ولا يرده عن ذلك راد . ولا يصده عن ذلك صاد . يتبع الناس فى أنديتهم ومجامعهم . ويرقبهم فى المواسم . ومواقف الحج ، يدعو كل من لقيه :- حراً وعبداً . كبيرا أو صغير . غنياً أو فقيراً (١)

وكذلك شأن الداعية الصادق لاتوهنه العقبات . ولا ترده النكبات . ولا تزيده إلا إيماناً وثباتاً . ولا شك أن ما لقيه ﷺ - وهو المؤيد بروح الله . المكرم برسالته - فيه تعزية لدعاة الحق . فى هذا الزمان فيما يلقونه من انصراف الناس عنهم . ومعارضة الجهلاء لهم . حتى ليذكروا أنهم ليسوا أعز على الله من سيد المرسلين . وليسوا أقدر على البلاغ المبين من الصادق الأمين . فلا يهنوا ولا يحزنوا . وكفاهم شرفاً من الله أن سخرهم للتوجيه والارشاد .

وأن وفقهم إلى سبيل الهداية والرشاد **(ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين)** (٢)

«زاد للداعية»

المتأمل فى الآيات التى أمرت الرسول ﷺ بالجهر بالدعوة **(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)** (٣) **(وأنذر عشيرتك الأقربين . وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم)** .(٤)

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٤٠ - ٤١

(٢) سورة فصلت آية : ٣٣ .

(٣) سورة الحجر آيه : ٩٤

(٤) سورة الشعراء آية : ٢١٤ - ٢١٧

يجد أنها جمعت أربع توجيهات يلزم الداعية إلى الله أن يحرص عليها فى تبليغه دعوة الله تعالى :-

التوجيه الأول :- بدء تبليغ الدعوة بحزم إلى العشيرة الأقربين . لأنهم أولى الناس بها وأحقهم بخيرها ومعروفها . ولأن إيمان البعض منهم سيزيده قوة ومنعة . فى حين أن إعراض الآخرين لن يضره كثيراً . لأنهم فى نهاية الأمر من عصبته . ولن يوغلوا فى معاداته . لما يربطهم به من صلات قبلية .

التوجيه الثانى :- خفض الجناح للمؤمنين بإلانة الجانب لهم والتواضع فى معاملتهم . والرحمة بهم . وتأليفاً لقلوبهم . وتثبيتاً لإ يمانهم . وتقديراً لوفائهم وإخلاصهم .

التوجيه الثالث :- عدم المبالاة بإعراض المشركين أو معصية المفرطين . والاكتفاء بالتبرء من أعمالهم . والإعراض عنهم .

التوجيه الرابع :- الإستمرار فى الدعوة دون مبالاة بما يواجهها من عقابات مع التوكل على الله تعالى . وتفويض الأمر إليه . فإنه سبحانه وتعالى . عزيز لا يقهر . قادر لا يغلب . رحيم لا يضيع عمل المؤمنين . ولا يفلح كيد المجرمين .

لماذا بدأت الدعوة أولاً بعشيرته الأقربين :-

وقد بدأت الدعوة الإسلامية فى أول الجهر بها بعشيرة النبى ﷺ الأقربين لاعتبارات كثيرة منها :-

١ - أن هؤلاء أولى بالانتفاع بهذا الخير من غيرهم .

٢ - أول ما يؤمن هؤلاء يكونون عوناً للنبى ﷺ .

٣ - عندما يظلون على شركهم . يكون النبى ليس مسئولاً عنهم .

٤ - ولأن الحجة إذا أقيمت عليهم تعدتهم إلى غيرهم . وإذا لزمتهم تكون لغيرهم ألزم . فهم عبرة لغيرهم . لأن العشيرة مع قربها . وقرابتها من

النبى ﷺ . يلحقهم العذاب الأليم لو بقوا على شركهم . وعدم اعترافهم برسالته ﷺ .

٥ - وقد خص عشيرته الأقربين بالإنذار لتنحسم أطماع سائر عشيرته . وأطماع الأجانب فى مغارقته إياهم على الشرك . (وعشيرته الأقربين هم « قريش - وقيل بنى عبد مناف » (١)

وهم بمثابة القادة لغيرهم من العرب فى شتى أنحاء الجزيرة العربية .

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٢٦ .

(المرحلة الثالثة)

« دعوة العرب عامة شرقاً وغرباً »

ودليل ذلك قول الله تعالى :- وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها (١)

وأم القرى هى «مكة » وقد سميت بذلك لأنها أشرف البلاد . وقبل لمكة . أم القرى لأن الأرض حيت تحتها .

والمقصود بمن حولها :- سائر البلاد والخلق شرقاً وغرباً (٢) وقد ظل النبى ﷺ يدعو أهله وعشيريه الأقربين . حتى استجاب له من أراد الله هدايته . ووفقه لاتبا ع هدى النبى ﷺ وموآزرته ونصرته . ومنهم من ظل متمسكاً بشركه ووثنيته وجابه النبى ﷺ وصد عنه فى كل موقف .

وقد ازداد الصد والتحدى بعد موت أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبى ﷺ التى كانت تواسيه عند المحن والشدائد وتشد من أزره .

وموت عمه أبى طالب الذى كان يناصره ويعاضده فى مجابة قريش .

وقد نالت قريش من ﷺ من الأذى مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب حتى قال ﷺ - ما نالت قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب (٣) وذلك لأنهمَ تجراؤا عليه بكثير من ألوان العنت والعذاب .

---

(١) سورة الشورى آيه ٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٠٧ وتفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦١٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ١٩ .

(ذهابه ﷺ إلى الطائف)

وقد تحمل ﷺ الكثير والكثير فى سبيل تبليغ دعوة الله عز وجل إلا أنه أخذ يعد العدة ليتنقل بالدعوة إلى مكان آخر تجد فيه استجابة وقبولاً . فولى وجهه شطر الطائف قرب مكة .

يقول ابن إسحاق :- ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى مالم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه . ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة :- عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير بن عوف .

فجلس إليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم به من نصرته على الإسلام . والقيام معه على من خالفه من قومه .

فقال له أحدهم وهو يمرط (١) ثياب الكعبة : إن كان الله أرسلك وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟

وقال الثالث : والله لأكلمك أبداً . لأن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من وقد يأس من خبر ثقيف . وقد قال لهم إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيثيرهم ذلك عليه. فلم يفعلوا . وأغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط (٢) لعتبة وشيبة إبنى ربيعة فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران

---

(١) ينزعه ويرمى به

(٢) الحائط : الحديقة

إليه ويريان مالقى من سفهاء أهل الطائف .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين . وأنت ربى إلى من تكلنى . إلى بعيد يتجهمن (١) أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى . ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أويحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولاقوة إلابك . فلما رآه ابنا ربيعة وما لقى . تحركت له رحمها (٢) فدعوا غلاماً لهما نصرانيا يقال عداس . فقالا له خذ قطفا من هذا العنب فضعه فى هذاالطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عداس . ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له كل . فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال بسم الله . ثم أكل فنظر عداس فى وجهه ﷺ ثم قال : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد فقال له ﷺ ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال نصرانى . وأنا رجل من أهل نينوى (٣) فقال ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال له عداس وما يدربك ما يونس بن متى ؟ فقال ﷺ ذاك أخى كان نبى . وأنا نبى . فأكب عداس على الرسول يقبل رأسه ويديه وقدميه . (٤)

يقول أبنا ربيعة أحدهما لصاحبه :-

أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء هما عداس قالا له . ويلك يا عداس .

---

(١) بقابلنى بوجه كريه .

(٢) الرحم : الصله أو القرابه

(٣) نينوى : قريه عراقية على شاطىء نهر دجله قرب الموصل .

(٤) قال السهيل : وزاد التميمى : عداسا حين سمعه يذكر ابن متى قال : - لقد خرجت منها . وما فيها عشرة يعرفونه . مامتى فمن أين عرفت أنت متى . وأنت أمى . وفى أمة أمية . فقال الرسول ﷺ . هو أخى - السيرة النبوية ابن هشام جـ ٢ ص ٢٣ .

مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه . قال ياسيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا . لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلانبى قالا له / ويحك يا عداس . لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خيراً من دينه .

ثم إن الرسول ﷺ رجع من الطائف إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف (١)

وفى توجه الرسول ﷺ إلى الطائف بعد أن أعرضت عنه مكة دليل على التصميم الجازم فى نفس الرسول على الاستمرار فى دعوته وعدم اليأس من إستجابة الناس لها . والبحث عن ميدان جديد للدعوة بعد أن قامت الحواجز دونها فى ميدانها الأول .

كما أن فى اغراء تقيف صبيانها وسفهاءها بالرسول ﷺ دليلاً على أن صفة الشر واحدة أينما كانت وهى الاعتماد على السفهاء فى إيذاء دعاة الخير . وفى سبيل الدماء من قدمى النبى ﷺ وهو النبى الكريم أكبر مثل لما تحملة الداعية فى سبيل الله من أذى وإضطهاد والسبب فى موقف ثقيف العنيف من دعوة النبى ﷺ أنها كانت على طرفى نقيض من قريش إذ كانت تنافسها فى زعامة العرب . فلذا كرهوا أن يكون الداعى لهذا الدين منهم . وقال قائلهم : لا يربنى رجل من قريش (أى لايكون زعيمى الدينى منهم) (٢)

وفى لحظة الكرب تبدو حال الداعية أن أمره كله لله وأن أمره كله خير فهو يفعل ما يؤمر به وينفذ ما جاءه . أما أن يستجيب الناس فتلك مشيئة الله .

وتبدو حال الداعية وقد ارتبطت بالجو الربانى . ويدعو ﷺ دعائه الخاشع بكلمانه التى ترطب الفؤاد . وتحل فيه السكينة . وتذهب عن القلب همومه (٣)

كما أن دعاء النبى ﷺ فيه تأكيد لصدق الرسول ﷺ فى دعوته وتصميمه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ص ٢١ إلى ص ٣٢

(٢) نافذة على الإيمان : الشيخ محمد مصطفى الحديدى الطبر ص ٢٨٩ ط مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م .

(٣) الدعوة فى عهدها المكى ٣٢٥ .

على الاستمرار فيها مهما قامت فى وجه الصعاب وأنه لايهمه إلا رضا الله وحده فلا يهمه رضا الكبراء والزعماء ولا رضا العامة والدهماء - إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى كما أن فيه إستمداد القوة من الله باللجوء إليه والإستعانه به عندما يشتد الأذى بالداعية .

وفيه أن خوف الداعية كل الخوف هو من سخط الله وغضبه . لا من سخط أى شيء سواه .

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ حتى روى البخارى قول النبى ﷺ :

فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك . وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال يامحمد لك ماشئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين أى لفعلت .

والأخشبان هما جبلا مكة : أبو قبيص والذى يقابله وهو قيمقعان . فقال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من - أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا (١)

وفى هذا الجواب الذى أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الكريمة الفذة . وما كان عليه من الخلق العظيم . الذى لايدرك غوره

(ما يستفاد من دعوته ﷺ فى الطائف)

وتأخذ من دعوته فى الطائف :

١- أن الداعية يبدأ بدعوة رؤوس القوم . لا باعتبار أنهم أفضل . بل باعتبار أنهم قدوة لقومهم . ولهم التأثير فيهم .

٢ - على الداعيــة أن يعيد المحاولات مــع المدعو . كما فعل ﷺ مع

(١) صحيح البخارى كتاب بدأ الخلق جـ ١ ص ٤٥٨ . وصحيح مسلم باب مالقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين جـ ٢ ص ١٠٩ .

زعماء ثقيف .

٣ - وأنه يجب على الداعية أن يتحمل الأذى . والمتاعب فى سبيل دعوته ولاينصرف عنها مهما كانت الأحوال

٤ - أن الداعية إن وجد صدوداً من المدعو لا تفتر عزيمته . ولايتسرب اليأس إلى قلبه . بل عليه أن يصبر ويثابر . لأن الصبر عدة الداعية فى وقت الشدائد والمحن .

٥ - أن الداعية يجب عليه البحث الدؤوب عن مناطق جديدة ينشر فيها دعوته باذلاً النفس والنفيس .

٦ - أن لاينتصر الداعية لنفسه ممن اعتدى عليه . أذا وجد الفرصة لذلك . بل يعفو ويصفح ابتغاء وجه الله تعالى . وأملاً فى هداية المدعو إلى الطريق المستقيم .

(عودته ﷺ من الطائف إلى مكة)

وقد عقد النبى ﷺ عزمه على العودة إلى مكة وعلى القيام باستئناف دعوته فى عرض الإسلام . وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد . وحماس شديد . وحينئذ قال له مولاه . زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخر جوك ؟ يعنى قريشاً . فقال يا زيد : أن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً . وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره .

فقال : هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ فقال الأخنس إن الحليف لا يجير على الصريح .

فقال للرسول : إئت سهيل بن عمرو فقل له . إن محمداً يقول لك هل أنت

مجيرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ فأتاه فقال له ذلك فقال إن بنى عامر بن لوىء لا تجير على بنى كعب .

قال فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره فقال إئت المطعم بن عدى فقل له : إن محمداً يقول لك هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟

قال نعم فليدخل . فرجع إليه فأخبره .

وأصبح المطعم بن عدى قد لبس سلاحه هو وبنو أخيه فدخل المسجد فلما رآه أبوجهل قال : أمجيره أم تابع ؟ قال بل مجير . قال : أجرنا من أجرت فدخل رسول ﷺ. فانتهى إلى الركن فاستلمه . وصلى ركعتين . وانصرف إلى بيته . والمطعم وأولاده مطيفون به .

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبية قال : قال رسول الله ﷺ:- (لو كان المطعم بن عدى حياً فكلمنى فى هؤلاء النتنى (يعنى أسارى بدر) لأطلقتهم له (١)

ويستفاد من ذلك أنه لابأس فى أن يستفيد الداعية من غير المسلمين طالما فيه مأمن على النفس وعلى الدعوة . كما فعل النبى . حيث دخل مكة وهو راجع من الطائف فى جوار المطعم بن عدى . وقد نادى المطعم من أهل مكة أن محمدا فى جوارى فلا يتعرض له أحد . وليس معنى هذا : أن النبى كان خائفاً . وإلا لو كان خائفاً لقال لملك الجبال أطبق عليهم الجبلين . ولكنه تشريع وأخذ بالأسباب كما فى هجرتة سراً وهجرة عمر جهراً . وبعد مادخل ﷺ مكة استأنف تبليغ الدعوة لأفراد . وا لقبائل والوفود . فى المنازل والأسواق والتجمعات العامة فى كل المناسبات .

فمنهم من يستجيب لدعوته . ومنهم من يأبى ويعترض .

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى جـ١ ص ٣١٤ - ٣١٦

دعوته للقبائل والوفود :

يقول ابن إسحاق . ثم قدم رسول الله ﷺ مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به . فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل ويخبرهم أنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه . حتى يبين عن الله ما بعثه به .

وحدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبى قال :- إنى لغلام شاب مع أبى يمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن - تخلعوا ما تعبدون من دونه من الأنداد . وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به . قال وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان (١) عليه حلة عدنية فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه .قال ذلك الرجل : يا بنى فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزة من أعناقكم إلى ماجاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه . قال : فقلت لأبى يا أبت من هذا الرجل الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال هذا عمه عبد العزة بن عبد المطلب أبو لهب وعن ربيعة بن عباس وكان جاهلياً فأسلم قال رأيت رسول الله ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز . وهو يقول ياأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول إنه صابىء وكاذب - يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب . (٢)

وكان لا يدع من العرب من له اسم وشرف إلا دعاه وعرض عليه ما عنده قال جابر بن عبد الله مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم

---

(١) غديرتان : ذؤابتان من شعر

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٢٤ .

بعكاظ ومجنة وفى المواسم يقول من يؤوينى من ينصرنى ؟ وعنه أيضا قال : كان النبى ﷺ يعرض نفسه بالموقف . ويقول ألا رجل يحملنى إلى قومه . فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى (١)ولم يأل النبى ﷺ جهداً فى توصيل دعوة الله تعالى إلى كل العرب فى كل مكان .

فقد أتى (قبيلة كندة فى منازلهم وفيهم سيدلهم يقال له : مليح فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه .

وأتى كلباً فى منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم : بنو عبد الله فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول : يابنى عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

وأتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فلم يك أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم .

وأتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله

على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الأمر لله يصنعه حيث يشاء . قال : فقال له أفنهدف (٢) نحورنا للعرب دونك . فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا . لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه . فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدكه السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم المواسم . فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم . فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم : فقالوا : جاءنا فتىً من قريش أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا قال فوضع

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى : جـ ١ ص ٢١٦ .

(٢) أي نصيرهدفاً يرمى عليه . والهدف : الغرض .

الشيخ يده على رأسه ثم قال : يابنى عامر هل لكم من تلاف ؟ هل لذناباها من مطلب (١) ؟ والذى نفس فلان بيده ما تقولها اسماعيل قط وإنها لحق فأين رأيكم (٢)

وقال موسى بن عقبة عن الزهرى : فكان رسول الله ﷺ فى تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ويكلم كل شريف قوم لايسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه ويقول : لاأكره احداً منكم على شىء من رضى منكم بالذى أدعوه إليه فذلك . ومن كره لم أكرهه . وإنما أريد أن تحرزونى مما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى . وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء . فلم يقبله أحدمنهم وما يأت أحد من تلك القبائل إلاقال : قوم الرجل أعلم به أترون أن رجلاً يصلحنا . وقد أفسد قومه ولفظوه ؟ وكان ذلك مما ذخره الله للأنصار وأكرمهم به . (٣)

وعن على بن أبى طالب قال : لما أمر الله رسوله يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبوبكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب عليه السكينة والوقار . وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات . فتقدم أبوبكر فسلم . قال على وكان أبوبكر مقدماً فى كل خير وكان رجلاً نسابة فقال لهم : ممن القوم ؟ قالوا : من بنى شيبان بن ثعلبه . فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : بأبى أنت وأمى ليس بعد هؤلاء من عز فى قومهم .

وفى رواية ليس وراء هؤلاء غذر من قومهم . وهؤلاء غرر فى قومهم وهؤلاء غرر الناس . وكان فى القوم مفروق بن عمرو . وهانى بن قبيصة .

والمثنى بن حارثة . والنعمان بن شريك . وكان أقرب القوم إلى أبى بكر :

---

(١) هذا مثل يضرب لما فات . وأصله من ذانابى الطائر إذا أفلت من حباله . فطلبته بزناباه .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٢٥ - ٢٦

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٤٠ .

مفروق بن عمرو . وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً . وكانت له غديرتان تسقطان على صدره . فكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر . فقال له أبوبكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال له إنا لنزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة . فقال له : كيف المنعة فيكم ؟ فقال : علينا الجهد ولكل قوم جهد . فقال أبوبكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ قال مفروق إنا أشد مانكون لقاءً حين نغضب وأنا لنؤثر الجياد على الأولاد . والسلاح على اللقاح . والنصر من عند الله : يديلنا مرة ويديل علينا مرة . لعلك أخو قريش ؟ فقال أبوبكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله فها هو هذا . فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك .ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال : إلام تدعو باأخا قريش ؟ فتقدم ﷺ فجلس . وقام أبوبكر يظله بثوبه .

فقال ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأنى رسول الله . وأن تؤوونى وتنصرونى . حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به . فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله . وكذبت رسوله . واستغنت بالباطل عن الحق . والله هو الغنى الحميد . قال له : وإلى ما تدعو أيضاًيا أخا قريش ؟

فتلا ﷺ **(قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا – إلى قوله – ذلك وصاكم به لعلكم تتقون)** (١) فقال له مفروق : وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض . ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا ﷺ – **(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى . وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)** (٢) فقال له مفروق : دعوت والله

---

(١) سورة الأنعام آيه : ١٥١ – ١٥٣ .
(٢) سورة النحل آية :– ٩٠

يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ولقد أفك قوم كذبوك . وظاهروا عليك . وكانه أحب أن يشركه فى الكلام هانىء بن قبيصة .

فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا . فقال له هانىء : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدقت قولك . وأنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا أياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لم نتفكر فى أمرك وننظر فى عاقبة ما تدعو إليه زلة فى الرأى وطيشة فى العقل . وقلة نظر فى العاقبة .

وإنما تكون الزلة مع العجلة . وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً . ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر .

وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام . المثنى بن حارثة . فقال :

وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك واستجبت لقولك يا أخا قريش وأعجبنى ما تكلمت به والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة .

وإنا إنما نزلنا بين صريين أحدهما اليمامة والآخر السماوة . فقال له رسول الله ﷺ :- وما هذان - الصريان ؟ فقال له : أما أحدهما : فطفوف البر وأرض العرب . وأما الآخر : فأرض فارس . وأنهار كسرى . وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى . أن لانحدث حدثاً . ولا نؤوى محدثاً . ولعل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما تكرهه الملوك . فأما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور . وعذره مقبول أن وأما ماكان يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور . وعذره غير مقبول فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى العرب فعلنا . فقال ﷺ : ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه .

ثم قال الرسول الله ﷺ : أرأيتم إن لم تلبثوا إلايسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم أتسبحون الله وتقدسونه ؟ فقال له النعمان بن شريك اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ! فتلا رسول الله ﷺ **(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا)** (١) ثم نهض رسول الله ﷺ قابضا على يدى أبى بكر وعلى . ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ : فقال « ياعلى أية أخلاق للعرب كانت فى الجاهلية ما أشرفها ! بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا (٢)

هذه هى الأحداث كما صورها لنا الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ومنها نستخلص بعض الدروس الدعوية التى من أهمها :-

١ :- إن الرسول ﷺ قدركز فى هذا اللقاء على أمر العقيدة أولاً .

٢ :- ثم عرض ﷺ القواعد والمبادىء العامة لمايجب أن يكون عليه المجتمع البشرى من قيم وأخلاق وسلوك . حتى لا تكون هناك ذريعة إلى الشقاق والفراق بين الناس . وكل هذا تضمنته الآيات التى قرأها ﷺ من سورة الأنعام - الوصايا العشر - ومن سورة النحل

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)

٣ :- كيفية توزيع أعضاء الوفد الأدوار فيما بينهم !!!

كانت هناك قيم ومبادىء تحكم هؤلاء الناس . أثارت إعجاب النبى ﷺ . حتى قال بشأنها :- إية أخلاق فى الجاهلية ما أشرفها !! بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم عن بعض وبها يتحاجزون فيما بينهم :-

٤ :- فى تداول زعماء بنى شيبان - أعضاء الوفد - الحوار . وعرض وجهة

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٤٦ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٤٣ - ١٤٥ .

نظر كل منهم . من زاوية اختصاصه . مايصور حال وفود المفاوضات المعاصرة بين الدول حينما تكون هناك قضايا سياسية أودفاعية أو ثقافية تضم وفودها افراداً متخصصين فى مثل هذه القضايا حتى تدرس الأمور من كل جوانبها البيانية والدنيية والسياسة والحربية

٥ :- هذا الوفد وإن كانوا بدواً إلا أنهم كانوا يعرفون العهود وما يترتب عليها من التزامات

وقال الواقدى : أخبرنا عبد الله بن وابصة العبسى عن أبيه عن جده قال جاءنا رسول الله ﷺ فى منازلنا بمنى ونحن نازلون بإزاء الجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف . وهو على راحلته مردفا خلفه زيد بن حادثة . فدعانا فوالله ما استجبناله ولا خير لنا . قال . وقد

كنا سمعنا به وبدعائه فى المواسم فوقف علينا يدعونا فلم نستجب له وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسى فقال لنا : أحلف بالله لوقد صدقنا هذا الرجل . وحملناه حتى فحل به وسط بلادنا لسكان الرأى فأحلف بالله ليظهر فى أمره حتى يبلغ كل مبلغ . فقال القوم : دعنا منك لا تعرضنا لما لا قبل لنا به . وطمع رسول الله ﷺ فى ميسرة فكلمه فقال ميسرة . ما أحسن كلامك وأنوره ولكن قومى يخالفوننى . وإنما الرجل بقومه فإذا لم يعضدوه . فالعدى . أبعد (١) . فانصرف رسول الله ﷺ وخرج القوم صادرين إلى أهليهم . فقال لهم ميسرة - ميلوا نأتى فدك فإن بها يهوداً نسألهم عن هذا الرجل فما لوا إلى يهود فأخرجوا سفراً لهم فوضعوه . ثم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبى الأمى العربى يركب الحمار . ويجتزىء بالكسرة . ليس بالطويل ولا بالقصير وبالجعد ولا بالسبط فى عينيه حمرة مشرق اللون . فإن كان هو الذى دعاكم فأجيبوه

---

(١) العدى بالكسر : الغرباء والأجانب والأعداء بوجه عام والعدى بالضم : الأعداء خاصة .

وادخلوا فى دينه فإنا نحسده ولا نتبعه . وإلاقاتله . فكونوا ممن يتبعه .

فقال ميسرة : ياقوم ألاإن هذا الأمر بين .

فقال القوم : نرجع إلى الموسم ونلقاه . فرجعوا إلى بلادهم . وأبى ذلك عليهم رجالهم فلم يتبعه أحدمنهم فلما قدم الرسول ﷺ المدينه مهاجراً وحج حجة الوداع . لقاه ميسرة فعرفه . فقال يارسول الله والله مازلت حريصاً على اتباعك من يوم أتخت بنا حتى كان ما كان وأبى الله إلا ما ترى من تأخر إسلامى . وقد مات عامة النفر الذين كانوا معى فأين مدخلهم يارسول الله فقال ﷺ كل من مات على غير الإسلام فهو فى النار .

فقال ميسرة – الحمد الله الذى أنقذنى : فأسلم وحسن إسلامه وكان له عند أبى بكر مكان (١) وقد استقص الواقدى القبائل واحدة واحدة فذكر غرضه عليه السلام نفسه على بنى عامر وغسان وبنى فزارة وبنى مرة وبنى حنيفة . وبنى سليم . وبنى عبس . وبنى نضربن هوازن .

وبنى ثعلبة بن عكابه . وكندة وكلب . وبنى الحارث بن كعب . وبنى عذرة وقيس بن الحطيم وغيرهم (٢) وعن جابر بن عبد الله قال : كان النبى ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول :–

هل من رجل يحملنى إلى قومه . فإن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى عز وجل فأتاه رجل من همذان فقال : ممن أنت ؟ قال الرجل من همذان .قال فهل عند قومك من منعه ؟ قال : نعم ثم إن الرجل خشى أن يخفره قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال : آيتهم فأخبرك ثم آتيك من عام قابل :– قال نعم : فانطلق وجاء وفد الأنصار فى رجب (٣)

---

(١) السابق جـ ٣ ص ١٤٥ – ١٤٦ .

(٢) السابق جـ ٣ ص ١٤٦

(٣) السابق جـ ٣ ص ١٤٦ .

وكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلما اجتمع الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الهدى والرحمة . ولا يسمع بقادم يقوم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له ودعاه إلى الله تعالى وعرض عليه ماعنده .

وقد قدم سويدبن بن الصامت أخو بنى عمر بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً وكان سويد : يسميه قومه فيهم : الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه وهو الذى يقول :

ألارب من تدعو صديقا ولو ترى ∴ مقالته بالغيب ساءك ما يفرى

مقالته كالشهد ما كان شاهداً ∴ وبالغيب مأثور على ثغرة النحر

يسرك باديه وتحت أديمه ∴ تميمة غش تبترى عقب الظهر

تبين لك العينان ما هو كاتم ∴ من الغل والبغضاء بالنظر والشزر

فتصدى له رسول الله ﷺ حسين سمع به فدعاه إلى الله والإسلام . فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى . فقال له رسول الله ﷺ وما الذى معك ؟ قال مجلة لقمان - يعنى حكمة لقمان - فقال ﷺ أعرضها على - فعرضها عليه فقال : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله على هو هدى ونور فتلا عليه ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه . وقال إن هذا القول حسن . ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج . فكان رجال من قومه يقولون : إنا لتراه قتل وهو مسلم وكان قتله قبل بعاث (١)

وعن محمود بن لبيد قال : لما قدم أبو الحيس أنس بن رافع مكة ومعه فتية

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٢٦ - ٢٨ . وبعاث يوم من أيام العرب . كان فيه حرب طويل بين الأوس والخزرج .

من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون من قريش الحلف على قومهم من الخزرج . سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ قالوا وما ذاك ؟ قال أنا رسول الله إلى العباد . أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً . وأنزل على الكتاب . ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً - ياقوم هذا والله خير مما جئتم له . فأخذ أبو الحيس حفنه من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ . وقال : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا فصمت إياس . وقام ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة . وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك . قال محمود بن لبيد : فأخبرنى من حضرنى من قومه أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات . فما كانوا يشكون أنه قدمات مسلماً .لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع (١) وهكذا تنتقل الدعوة من دعوة القبائل . إلى دعوة الأفراد دون يأس أو ضجر . لتضع مبدءاً عاماً يسير على هداه كل الداعاة إلى الله فى كل زمان ومكان - لأن يهدى بك الله رجلاً واحداً خيرلك من حمر النعم وشاء الله عز وجل أن تنتقل الدعوة من هذا الطور القباطى والفردى إلى الطور الجماعى العنلى لاتخشى فى الله لومة لائم .

(لقاء الانصار ومبايعتهم)

أ :- لقاء العقبة الأول فى السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية الشريفة :-

فى موسم الحج كانت تقام فى مكة الأسواق المشهورة . مثل : عكاظ والمجاز والمبثة وكان العرب يقدون إلى مكة من كل أنحاء الجزيرة العربية . وكل قبيلة تنزل فى مكان خاص بها .

(١) السابق جـ ٢ ص ٢٨ .

فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعده له خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار . فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم . فبينما هو عند العقبة (١) لقى رهطاً من الخزرج أرزد الله بهم خيراً . (٢)

فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج . قال أمن موالى يهود ؟ قالوا نعم . قال . أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن قال وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم . وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان . وكانوا قد غزوهم ببلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ . أولئك النفر ودعاهم إلى الله . قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلمون والله إنه النبى الذى توعدكم به اليهود فلا يسبقونكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه . وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له إنا قد تركنا قومنا . ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم . فندعوهم إلى أمرك . ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله بك . فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا (٣) وهذا النص يوضح عدة ***حقائق هامة منها :-***

- أهمية مرحلة التمهيد للدعوة فقد كان حديث اليهود وتوعدهم لهذا البطن

(١) العقبة مكان مرتفع شرقى مكة على يسار الطريق للقاصد منى من مكة .

(٢) كانوا ستة نفر . وهم : أسعد بن زرارة . وعوف بن الحارث . وهما من بنى النجار ورافع بن مالك من بنى زريق . وقطبة بن عامر من بنى سلمة . وعقبة بن عامر من بنى حرام . وجابر بن عبد الله من بنى عبيد بنى عدس

(٣) السابق جـ ٢ ص ٢٩ .

من الخزرج جعلهم يتبادلون الشورى فيما بينهم ليسبقوا اليهود ويفسد وا عليهم خطتهم فآمنوا وصدقوا .

-وأن هؤلاء النفر لما عادوا . تحملوا مسئولية العمل للدعوة . وهوجزء أساسى فى منهج التبليغ والعمل مع الجماعة . وقد حمل التاريخ الإسلامى لهؤلاء النفر مجهوداً مشكوراً ونشاطاً رائعاً مخلصاً فى نشر الدعوة بعد عودتهم إلى يثرب . يقول ابن إسحاق -

فلما قدموا المدينه إلى قومهم . ذكروا لهم رسول الله ﷺ . ودعوهم إلى الإسلام حتى فشافيهم . فلم يبق دار من دور الأنصار إلاوفيها ذكر رسول الله ﷺ . (١)

ب :- لقاء العقبة الثانى فى السنة الثانية عشرة من البعثه النبوية الشريفة فى العام المقبل : وفى الموسم من الأنصار اثنى عشر رجلاً (٢) شهدوا الموسم عامئذ وعزموا على الإجتماع برسول الله ﷺ فلقوه بالعقبة فبايعوه عندها .

عن عبادة بن الصامت قال كنت ممن حضر العقبة الأولى وكنا اثنى عشر رجلاً -عشرة من الخزرج واثنان من الأوس - فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء . (٣) وذلك قبل أن يفترض الحرب - على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفدينه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف فإن وفيتم فلكم الجنة . وأن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر (٤) وواضح من هذا النص الشريف أن هذا

---

(١) السابق جـ ٢ ص ٣٠

(٢) أى على هيئة بيعه النساء بعد ذلك عام الحديبية

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٣٢ - ٣٣ والبداية والنهاية جـ ٣ ص ١٥٠ .

(٤) هم السنه الذين كانوا فى العقبة الأولى . ومعهم معاذبن الحارث من بنى النجار . وذكوان بن عبد قيس من بنى زريق . وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة من بنى عوف . وأبو الهيثم بن التيهان من بنى الأوس بن حارثة . وعويم بن ساعدة من بنى عمرو بنى عوف من الأوس أيضاً .

الوفد جاء لا ليعلن إسلامه - لأنه أعلنه من قبل فى اللقاء الأول - بل جاء ليبايع الرسول ﷺ على الالتزام بقيم الإسلام وأخلاقياته . والتمسك بأهدافه .

وهذا هو الجانب السلمى فى الإسلام - إذ صح التعبير -

ثم ارسل معهم الداعية الشاب مصعب بن عمير رضى الله عنه

- الذى لم يشاء ﷺ أن يجازف به فى المرة الأولى - أرسله هذه المرة بعد أن استبانت ملامح المستقبل لكى يتولى شئون الدعوة والتثقيف هناك .

فنزل مصعب الداعية على أسعد بن زرارة رضى الله عنه فكان يسمى فى المدينة . المقرىء . وكان يصلى بهم (١) ومرت الأيام والشهور ومصعب يعمل فى المدينة بهمة لاتعرف كللاً ولا مللاً .يتحرك بالقرآن الكريم . ويحرك بالقرآن أفئدة الناس وعقولهم . وعندما اقترب موسم الحج من السنه الثالثة عشرة من البعثة . غادر مصعب يثرب يطيد به الشوق للقاء الرسول ﷺ وفى مكة اجتمع به وعرض عليه نتائج مساعيه فى يثرب وأنه عما قريب سيلتقى الرسول ﷺ بوفد كبير من أهل يثرب . تقر له عينه . ويطمئن به فؤاده . وينشرح له صدره الشريف .

جـ :- لقاء العقبة الثالث فى السنه الثالثه عشرة من البعثة الشريفة :-

جاء الوفد الجديد إلى مكة مكوناً من ثلاثه وسبعين رجلاً وامرأتين واتفق معهم النبى ﷺ على أن يوافوه عند العقبة فى أو اسط أيام التشريق . فى الثلث الثانى من الليل حيث ينام الناس . ويتسللون إليه واحداً واحداً . أو مثنى مثنى . وتمت هذه البيعة الكبرى على كل جوانب الإسلام سلماً وقتالاً . أو نصرة ومنعة ومدوا إليه أيديهم مصافحين ومقسمين بالله الواحد الأحد الذى آمنوا به . أنهم سيحمونه وينصرونه على أية قوة فى الأرض تقف فى وجه

---

(١) السابقين جـ ٢ ص ٣٣ وجـ ٣ ص ١٥١

الدعوة الإسلامية عن عامر الشعبى قال :

انطلق رسول الله ﷺ مع العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة . فإن عليكم من المشركين عيناً . وإن يعلموا بكم يفضحوكم . فقال قائلهم وهو أبو أمامة سل يامحمد لربك ماشئت . ثم سل لنفسك بعد ذلك ماشئت : ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ؟

قال أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوابه شيئاً وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤونا وتنصرونا . وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم . قالوا : فمالنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال لكم الجنة – قالوا فلك ذلك . فما سمع الشيب والشباب خطبة مثلها .(١)

وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : فلما اجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه . ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال يامعشر الخزرج – وكانت العرب يسمون هذا الحى من الأنصار : الخزرج خزرجها وأوسها – إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا . ممن هو على مثل رأينافيه . فهو فى عزة من قومه ومنعة فى بلده وأنه قد أبى إلا الإنحياز إليكم . واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه . فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذ لوه بعد الخروج إليكم فمن الأن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده . فقالوا له قد سمعنا ما قلت . فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن . ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام .

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٦٣ .

قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بن معرور بيده وقال نعم فوالله الذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنايا رسول الله فنحن – والله – أبناء الحروب ورثناهاكابرا عن كابر . فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها – يعنى اليهود – فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم ﷺ ثم قال :– بل الدم بالدم . والهدم الهدم فى (١) أنا منكم وأنتم منى . أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم (٢)

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :–

مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم وفى عكاظ ومجنة وفى المواسم . يقول :– من يؤوينى ؟ من ينصرنى ؟

حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة . فلا يجد من يؤويه وينصره حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر . فيأتيه قومه وذووا رحمه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ويمض بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب . فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلاوفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ثم ائتمروا جميعاً فقلنا حتى متى نترك

---

(١) قال بن قتيبة : كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمى دمك . وهدمى هدمك . أى ماهدمت من الدماء هدمته أنا . ويقال أيضا : بل اللدم اللدم . والهدم الهدم . وأنشدوا :– ثم ألحق بهدمى ولدمى

فاللدم جمع لادم . وهم أهله الذين يلتدمون عليه إذا مات . وهو من لدمت صدره : إذا اضربيه . والهدم : الحرمة . وانما كنى عن حرمة الرجل وأهله بالهدم . لأنهم كانوا أهل نجعه وارتحلوا ولهم بيوت يستخفونها . يوم ظعنهم . فكلما ظعنوا هدموها ... ثم قال هدمى هدمك أى رحلتى مع رحلتك . أى لا أظعن وأدعك :– السيرة النبوية جـ ٢ ص ٤٠ .

(٢) السيرة النبوية ج٢ ص ٣٩ . والبداية والنهاية جـ ٣ ص ١٦١ .

رسول الله ﷺ يطوف ويطرد فى جبال مكة . ويخاف ؟

فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه فى الموسم فواعد ناه شعب العقبة . فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافدنا . فقلنا يا رسول الله : علام نبايعك قال : تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل . والنفقة فى العسر واليسر . وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم . وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة . فقمنا إليه فبايعناه وأخذ بيده أسعد بن زرارة – وهو من أصغرهم .

فقال : رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله . وأن إخراجه اليوم . مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم . وأن تعضكم السيوف فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله . وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه . فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله قالوا : أمط عنا يا أسعد . فوالله لا ندع هذه البيعة ولانسلبها أبداً . قال : فقمنا إليه فبا يعناه وأخذ عليها وشرط ويعطينا على ذلك الجنة (١) وعن اسماعيل بن عبيد الله عن أبيه قال : قدمت روايا خمر فأتاه عبادة بن الصامت فخرقها : وقال إنا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى النشاط والكسل . والنفقه فى العسر واليسر . وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وعلى أن نقول فى الله لاتأخذنا فيه لومة لائم وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة فهذه بيعة رسول الله ﷺ التى بايعناه عليها . (٢)

وقبل أن يرجعوا . اختار منهم الرسول ﷺ اثنا عشر رجلاً – نقيباً – تسعة

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٥٩ .
(٢) السابق جـ ٣ ص ١٦٣ .

من الخزرج وثلاثه من الأوس ليشرفوا بأنفسهم على سير الدعوة فى يثرب . حيث استقام عود الإسلام هناك وكثر مثقفوه . ثم إن البنى ﷺ أراد أن يشعرهم بمنزلتهم العظيمة فى الإسلام فلم يعودوا فى حاجة لكى يبعث معهم معلماً من غيرهم ليعلمهم الإسلام . فقد أصبحوا من علمائه وحماته وأنصاره .

(ما يستفاد من هذه البيعات)

يستفاد من هذه البيعات دروس مفيدة عن حركة سير الدعوة فى الفترة الحرجة التى مرت بها فى مكة . من هذه الدروس :-

الأول - أن عزم النبى ﷺ لم تزعزعه الشدائد .التى عاناها من قومه وبخاصة بعد وفاة عمه أبى طالب بل ظل مثابراً على الدعوة حتى ظفر بهذه البيعة المباركة .

الثانى :- أن الله لم يترك رسوله دون منعة من قومه فقد علمنا موقف عمه العباس منه فى هذه البيعة برغم أنه كان على دين قومه . ولم يسلم بعد . - فى ذلك الوقت -

الثالث :- أن الحق لابد أن يجد له أنصاراً وأن الصبر لابد أن ينتهى إلى الظفر .

الرابع :- أن العرب حين يعلون كلمتهم ووعدهم . يعرفون مدى ما يعاهدون عليه ويوطنون النفس على تحمل آثاره مهما كانت . وهذا الخلق يجب أن يتحلى به الإنسان وبخاصة الإنسان المسلم .

الخامس :- أن من أزمع أمراً خطيراً لابد أن يتأهب له ويعد العدة الصالحة لنجاحه .

السادس :- أن هذه البيعة كانت ذات أثر كبير فى مسار الدعوة الإسلامية حين مهدت السبيل لهجرة ناجحة عظيمه الأثر فى ثباث الدعوة الإسلامية

وحمايتها وانتشارها برجال أباة الضيم . عظام النفوس . أقوياء العقيدة .

السابع :- أن هؤلاء العظماء من الرجال أسلموا طواعية . لما وضحت لهم أمارات الحق فى الإسلام وأمارات الصدق فى الرسول ﷺ . ولم يدخلوه قسراً ولا طمعاً فى مال أو جاه

الثامن :- فى عرض النبى ﷺ نفسه على القبائل فى موسم الحج دليل على أن الداعية لا ينبغى أن يقتصر فى دعوة الناس إلى الخير على مجالسه وفى بيئته فحسب بل يجب أن يذهب إلى كل مكان يجتمع فيه الناس أو يمكن أن يجتمعوا فيه . وأنه لا ينبغى له أن ييأس من إعراضهم عنه مرة بعد أخرى فقد يهيىء الله له أنصاراً يؤمنون بدعوته الخيرة من حيث لا يفكر ولا يحتسب وقد يكون لهذه القلة التى تهتدى به بعد بعض المناسبات شيئاً كبيراً فيه انتشار دعوة الحق والخير وفى انتظارها النصر النهائى على الشر وأعوانه فلقد كان لإيمان الستة الأوائل من الأنصار الذين التقوا بالرسول أول مرة . ما أدى إلى تغلغل الإسلام فى المدينه وكان لهذا التغلغل أثر فى انتشار الإسلام وسيطرته عليها . مما مهد للمؤمنين المضطهدين فى مكة أن يجدوا فى المدنية مهاجراً يتمركزون فيه ولرسول الله ﷺ موئلاً أميناً يقيم فيه دولته ويبلغ منه دعوته . وينطلق منه أصحابه إلى مقاومة الشرك والمشركين بالحروب والمعارك التى كانت نهايتها انتصاراً خالداً للإيمان والمؤمنين . وهزيمه أبدية للشرك والمشركين .

التاسع :- تدل أحداث هذه اللقات الثلاثة بالعقبة . على مبلغ الإحكام والدقة فى التخطيط والتنظيم لها .

إذ كان نجاحها بمثابة نجاح المرحلة التحضيرية للهجرة .

وذلك أن النبى ﷺ كان يتحين الفرصة المناسبة لعقد المعاهدة حتى لايستلفت إليه النظر . فكان يختار موسم الحج . وكان المتعاهدون يخرجون من

مكة حيث بغص الموسم بالمجموع المتزاحمة إلى بقعة بعيدة هادئة .هى العقبة . كما كانوا يختارون الليل موعداً للقاء النبى ﷺ . فيتسللون واحداً واحداً . للتجمع فى المكان المحدد خلال ساعة محددة من الليل .

ومن تمام التخطيط أن النبى ﷺ كان يدعو من لم يكن أسلم منهم إلى الإسلام . متوخياً أن يتم ذلك سراً عمن حضر من كفار قومه .

وكان يبدأ بدعوة سادة القوم بوصفهم يمثلون القيادة التى يحتذ يها سائر الناس

وفى العقبة الثالثة اختار النبى ﷺ من المبايعين الثلاثة والسبعين . إثنى عشر نقيباً . تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . مما يدل على دقة التخطيط . فالنقيب هو الأمين المصدق على طائفته . والمطلع على اسرارهم . والمتحدث بلسانهم والمخاطب عنهم فى كثير من الحالات .

وجاء فى كتب السيرة أن النبى ﷺ قال للنقباء الاثنى عشر :-

{أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم . وأنا كفيل على قومى - يعنى المسلمين - قالوا : نعم (١) }

والكفالة هنا تؤدى معنى رقابة القائد على أفراد الجماعة . يقصد ضمان تنفيذ كل منهم لالتزاماته .

ومن تمام التخطيط ودقة التنظيم أيضاً : مراعاة التدرج فى تنفيذ الخطة . بمعنى : إنجاز الخطة على مراحل بحسب ظروف الإنسان والزمان والمكان .

وذلك لأن الطفر قد تؤدى إلى الإخفاق فى الوصول إلى الهدف المنشود ومن هنا . فإن المخطط الكفء يضع فى تقديره جميع الظروف المحيطة ويحدد الوسائل والأساليب المناسبة . وقد تحقق ذلك فى لقاءات العقبة الثلاثة . إذ اقتصر الأولى على دخول الوفد فى الإسلام .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٤٢

والثانى على المبايعة على الجانب السلمى : وبعث مصعب للدعوة والتعليم . وقد أسلم على يديه كثيرون . ممامهد اللقاء الثالث . والمبايعة الكبرى. التى تجاوزت الدخول فى الإسلام إلى المبايعة على الدفاع عن الدعوة والداعية ضد كل من يتصدى له ﷺ . وقعاً للعدوان بالعدوان .

العاشر :- هذه كلها محاولات بذلها رسول الله ﷺ فى البحث عن قاعدة للدعوة . وهى محاولات قوية جريئة تكشف عن بعض جوانب شخصيته . وبعد نظره . ودقه إعداده . وعظمة حكمته فى قيادة حركته .

وبذلك فقد تم توصيل الدعوة إلى أصقاع الأمة العربية . ثم العالم كله . نعم رفضها المطموسون بظلام الجاهلية . ولكن قبلها المشرقون بصفاء النفس الممنوحون نعمة السمع وشاء الله لهم أن يكونوا لها أجناداً .

مصطفين أخياراً . فرضى الله عن الأنصار من أوس وخزرج كم كان لهم على الإسلام والمسلمين والعالم كله من فضل لا ينتهى .

ورضى الله عن إخوانهم المهاجرين اللذين سبقوهم إلى الإيمان وضحوا فى سبيله بالغالى والنفيس من الأنفس والأموال والأوطان ربنا ألحقنا بهم جميعاً فى جنة الرضوان -

والله ذو الفضل العظيم

(المرحلة الرابعة)

مرحلة البشرية كلها – عالمية الدعوة .

ودليلها قوله تعالى :– **(وما أرسلناك إلاكافة للناس بشيراً ونذيراً)** – (١) إن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية بمعنى أنها موجهة لكل إنسان فى كل زمان ومكان دعوة لاتعرف حدود الوطن . ولا العنصر . ولا القبيلة . ولا الأسرة . ولا تعرف الحواجز المصطنعة التى يقيمها الناس لأنفسهم فى الأرض ويتصارعون من داخلها على الغلبة والسلطات .

دعوة لاتقسم الناس طوائف . ولا تقسمهم ألواناً ولا عناصر . وإنما تنفذ إلى قلوبهم مباشرة حيث يكمن الإنسان الجوهر . الفذ الذى تتكون منه الإنسانية . ومنذ الخطوة الأولى فى العهد المكى . والمسلمون قلة . تعد بالأفراد . قلة مطرودة من كل حمىً إلا حمى الله . محرومة من كل قوة وكل سلطات يقرر القرآن عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها . ولا للعرب ولا لأهل مكة . ولا لقريش . بل للعالمين كلهم . فى كل بقاع الأرض .

فهى ليست لجنس متميز . أو فصيلة . أو سمة اللون . أو ظاهرة اللغة بل لاتفرق بين العربى . والعجمى . أو الحبشى . أو الفارسى . أو الرومى . ولا بين الأبيض والأسود . والأصفر والأحمر . ولا تمنع من أن يستظل بظلها متكلم بأية لغة من اللغات . وهى لاتحدها حدود جغرافية . أو اعتبارات إقليمية . بل تصلح لكل البيئات والأجواء . وتتناسب مع كل بقعة من بقاع الأرض : تجارية أوصناعية .أو زراعية . فى البادية والحاضرة على اختلاف جميع المستويات والإعتبارات .

والدعوة لا تكون عالمية إلاإذا صحبت الإنسان فى جميع أزمانه المتطورة . وعصوره المتلاحقة وبيئاته المتباينة بمعنى أن تكون الدعوة خالدة أبدية .لا

---

(١) سورة سبأ أيه ٢٨

يعتريها نسخ أو زوال . ولا عقم أو جمود . متجاوبة مع جميع مطالبه المتنوعة المتحددة فى كل المجالات : الإجتماعية . والثقافية . والإقتصادية والسياسية ..آلخ .

ولا يوجد هذا كله إلا فى دعوة معصومة من الخطأ والتحريف . لها دستور محفوظ لا يعتريه تشويه أو تزييف .

وكل هذا ينطبق على الإسلام والدعوة الإسلامية التى عصمها الله من كل تحريف أو تبديل . وحفظ كتابها من كل تشويه أو تغيير - **(إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لها لحافظون)** (١) وهذه قضية لها من الأدلة ما يدعمها . ومن الشواهد ما يثبتها . وقد انعقد الإجماع بين المسلمين على عالمية الدعوة الإسلامية وخلودها بالأدلة النقلية والعقلية والتاريخية .

أولاً : الأدلة النقلية لعالمية الدعوة الإسلامية :-

وهى الأدلة الواردة فى القرآن الكريم . والسنة النبوية الشريفة من قول النبى ﷺ أو فعله . أتقريره .

وهى أدلة يقتنع بها المؤمنون بداهة . وورودها فى مثل هذا المجال . ليزداد المؤمن إيماناً . ويعلمها من يجهلها . ونرد بها على من يطعن فى الدعوة الإسلامية . من أنباء المسلمين أومن غيرهم بأن عالميتها من اختراع المسلمين . لا من نصوص القرآن والسنة .

الأدلة من القرآن الكريم :-

وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تدل على عالمية الدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى وتبدو أهمية هذه الآيات الكريمات فى أنها تدحض فرية من يزعم أن الدعوة الإسلامية بدأها سيدنا محمد ﷺ محلية للعرب فقط لاهتمامه بقومه وحدهم .

---

(١) سورة الحجر آية : ٩ .

فلما نجح فى إخضاعهم له . أغراه النجاح بتوسيع دائرة الدعوة . فزعم أنه للخلق جميعاً كما أن هذه الآيات الكريمات تبطل زعم من يزعم أن فكرة عالمية الرسالة والدعوة الإسلامية . لم تكن عند الرسول حينما أرسل بل جاءت فى عهد خلفائه الذين تاقوا إلى التوسع والفتوح (١)

وهذا تفكير متهافت لا يثبت ولا يستقيم أمام المنهج العلمى الصحيح . والتفكير المنطقى المستقيم . فمتى تم خضوع العرب لمحمد ﷺ حتى يغريه النجاح بمزيد من التوسع ؟!

– إن مكة التى طاردته .لم تفتح له إلا قبل الممات بسنتين اثنين . فأين إستقرار النصر . والتطلع إلى إخطاع الدنيا . وهو لم ُينته من الجزيرة العربية نفسها ؟!

– ثم إن عالمية الدعوة تم التصريح بها فى أوائل ما نزل من الوحى على رسول الله ﷺ ويؤكد ذلك الآيات المكية والمدنية . ونصوص السنة النبوية

أ :- الآيات المكية :-

قال تعالى :-

١ – (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين) (٢)

٢ – (فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم) (٣)

٣ – (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحى ويميت . فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى

---

(١) ردد ذلك – وليم موير – فى كتابه عن الخلافة وردده أيضا ساوندوز المحاضر الأول للتاريخ فى جامعة كنتر برى بزيلنده الجديدة ونشرته مجلة التاريخ المعاصر فى مارس وإبريل ١٩٦١ – راجع – الدعوة إلى الإسلام : أرنولد ص ٤٩ – ٥٠ . ومجلة الأزهر المجلد ٣٣ ص – ٢٢٠ .

(٢) سورة القلم آية : ٥١ – ٥٢

(٣) سورة التكوير آية : ٢٦ – ٢٧ .

يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) (١)

٤ - **(وما علمناه الشعر وما ينبغى له إنه هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين)** (٢) ومعنى قوله تعالى لينذر من كان حيا - كل من ثبت له الحياة

٥ - **(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)** (٣)

٦ - **(قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم . وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى . قل لا أشهد . قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون)** . (٤)

ومعنى من بلغ من وصل حد التكليف من أى جنس ولون أو من بلغه القرآن من غير المخاطبين به عند نزوله .

٧ - **(أولئك الذى هدى الله . فبهداهم أقتده . قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكر للعالمين)**. (٥)

٨ - **(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون)**. (٦)

٩ - **(وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير)** (٧)

فأم القرى هى مكة . ومن حولها يشمل كل الناس غير المقيمين فيها . فكل حى على وجه الأرض يقع حول مكة فهى مركز الدائرة . وقطرها ممتد بين كل

---

(١) سورة الأعراف آيه : ١٥٨ .
(٢) سورة يس آية : ٦٩ - ٧٠
(٣) سورة الفرقان آية : ١
(٤) سورة الأنعام آية : ١٩
(٥) سورة الأنعام آية : ٩٠
(٦) سورة سبأ آية : ٢٨ .
(٧) سورة الشورى آية : ٧

نقطتين على المحيط العالمى .

١٠- **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)** (١) .

وهذه الآيات كلها آيات مكية وفى سور مكية . وهى تفيد أن عالمية الدعوة تقررت منذ بداية الوحى إلى النبى ﷺ وفى الآيات التى كانت فيها الدعوة تواجه كثيراً من الآلام والصعاب التى تنوء بحملها الجبال الرواسى . كان القرآن الكريم يقرر أنه رسالة للعالم كله . فى كل زمان ومكان .

ب – الآيات المدنية :–

١ – **(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتو الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا . وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد)** . (٢)

٢ – **(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً)** (٣) فالدعوة فى هذه الآيات موجهة إلى اليهود والنصارى وهم أهل الكتاب . وإلى غيرهم من العرب الذين يطلق عليهم الأميون .

٣ – **(ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه)** (٤) فكل إنسان لا يدين بدين الإسلام لا يقبل منه ما دان به فالإسلام الخاتم هو دين الجميع .

٤ – **(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)** (٥)

٥ – **(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم . ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً)** (٦) وختم النبوة تقرير لهذه العالمية . فإن

(١) سورة الأنبياء آية : ١٠٧
(٢) سورة آل عمران آية : ٢٠ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٦٤
(٤) سورة آل عمران آية : ٨٥ .
(٥) سورة الصف آية ٩
(٦) سورة الأحزاب آية ٤٠

قارات العالم وإلى قيام الساعة لن يطرقها من السماء طارق . ولن يجيئها من عند الله رسول بعد محمد ﷺ وسيبقى القرآن الكريم الذى أنزل عليه . هو وحده صوت الحق بين البشرية جميعاً . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . محفوظ بحفظ الله له – **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)** (١) ونجد معنى ختم النبوة يتغلغل فى كل نواحى الرسالة الإسلامية حتى إنه لا يستقيم فهمها إلا فى ضوء هذا المعنى . وآيات القرآن الكريم . وأحاديث الرسول ﷺ كثرة كاثرة من التصريحات والتنبيهات والإشارات تؤكد أن الإسلام خاتم الأديان السماوية . وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين (٢)

الأدلة من السنة النبوية الشريفة : –

لقد بين النبى ﷺ عالمية الدعوة فى ثانى موقف وقفه ﷺ فى قريش بعد أمره بإعلان الدعوة – **(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)** (٣) **(وأنذر عشيرتك الأقربين)** (٤) فدعا قومه ثم حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :–

١ – إن الرائد لايكذب أهله . والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة (٥) ويؤكد هذا قوله ﷺ

٢ – أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً . فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة .

---

(١) سوره الحجر آية ٩ .
(٢) الرسول الكريم : د عبد الفتاح بركه ص ٦ – ٧
(٣) سورة الحجر آية ٩٤
(٤) سورة الشعراء آية ٢١٤
(٥) راجع صفحه ٢٨٧ من هذا البحث

وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة . وبعثت إلى الناس عامة (١)

٣ - وقوله أعطيت ثلاثاً لم يعطهن أحد قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم . ولم تحل لمن قبلى . يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبعثت إلى كل أحمر وأسود . وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً . أتيمم بالصعيد . وأصلى فيها . حيث أدركتنى الصلاة (٢)

٤ - كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة . وبعثت إلى كل أحمر وأسود (٣)

٥ - أرسلت إلى الخلق كافة . وختم بى النبيون (٤) والإمام ابن كثير بعد أن أورد كثيراً من الأحاديث النبوية التى جاءت فى ختم النبوة يقول :-

والأحاديث فى هذا كثيرة . فمن رحمة الله تعالى بالعباد : إرسال محمد ﷺ إليهم . ثم من تشريفه له : ختم الإنبياء والمرسلين به . وإكمال الدين الحنيف له . وقد أخبر الله تعالى فى كتابه . ورسوله ﷺ فى السنه المتواترة عنه . أنه لانبى بعده . ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل . (٥)

٦ - وفى كتابة ﷺ إلى جيفرو عبد بن الجلندى ملكى عمان . قوله :- فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين (٦)

٧ - عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : ضربت فى ناحية من الخندق

---

(١) صحيح البخارى كتاب الطهارة باب التيمم
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٤٣
(٣) البخارى وسلم
(٤) صحيح مسلم
(٥) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ٣ ص ٤٩٤
(٦) المواهب : القسطلانى جـ ١ ص ٢٢٥

فغلظت على صخرة ورسول الله ﷺ قريب منى . فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على فنزل . وأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة . لمعت تحت المعول برقة . قال : ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى قال : ثم ضرب الثالثة . فلمعت تحته برقة أخرى . قال : قلت بأبى أنت وأمى يارسول الله . ماهذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال أوقد رأيت ذلك ياسليمان ؟ قال : قلت نعم . قال : أما الأول : فإن الله فتح على بها اليمن . وأما الثانية : فإن الله فتح على بها الشام والمغرب . وأما الثالثة : فإن الله فتح على بها المشرق (١)

– قال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم عن أبى هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار فى زمان عمر وزمان عثمان وبعده – افتتحوا ما بدا لكم ، فوالذى نفسى أبى هريرة بيــده ، ما أفتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك (٢)

٨ – عن عدى أن النبى ﷺ قال : ولئن طالت بك حياة لتفتحين كنوز كسرى قلت : كنوز كسرى بن هرمز ؟ قال كنوز كسرى بن هرمز . وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز . (٣)

٩ – هذا بالإضافة إلى مكاتباته ﷺ إلى الملوك والأمراء فى الجزيرة العربية وخارجها يدعوها للإيمان برسالته .

١٠– وفضلاً عن الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تؤكد عالمية الدعوة منذ عصورها الأولى .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٣ ص ١٣٧
(٢) السابق جـ ٣ ص ١٣٧
(٣) البخارى

فإن هناك أمرين لو تأملهما كل عاقل لأدرك أن الرسول ﷺ خاتم النبيين . وأن دعوته هى رسالة الهدى والخير للبشرية جمعاء حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الأمر الأول : المعجزة التى جاء بها محمد ﷺ

الأمر الثاني :- تعاليم الإسلام .

أما الأمر الأول : فإن معجزة النبى محمد ﷺ . هى القرآن الكريم . وهى خالدة حفظها الله من التغيير والتبديل وستظل كذلك إلى يوم الدين . **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)** (١)

وهذه المعجزة تختلف عن سائر معجزات الأنبياء الذين بعثوا قبله ﷺ من حيث إن معجزة القرآن تمتاز بأنها معجزة عقلية تخاطب الإنسان فى كل زمان ومكان وأنها مع هذا . معجزة غير شخصية بمعنى أن وجودها وبقائها غير مرتبطة بشخصية النبى أو الرسول ، ومعجزات الأنبياء السابقين عليه ﷺ لم تكن كذلك . فهى معجزات حسية . مادية كما أنها معجزات شخصية . تظل آية على صدق النبى مدة حياته . فإذا توفاه الله أصبحت هذه المعجزة خبراً يروى . وأثراً ينتقل .

فمثلاً كانت – معجرة موسى عليه السلام العصا. تنقلب حية فتلقف ما يأفك به سحرة فرعون . وكذلك كانت معجزته أن يخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء . من غير سؤ للناظرين . فهى معجزة حسية تشاهد وترى . وهى معجزة شخصية . فبعد وفاة موسى . أصبحت معجزته خبراً يروى وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص . وإحياء الموتى بإذن الله فلما توفاه الله ورفعه وطهره من الذين كفروا . أصبحت هذه المعجزة خبراً يروى .

---

(١) سورة الحجر آية ٩ .

ولكن معجزة نبينا محمد ﷺ . ليست من جنس هذه المعجزات . فهى عقلية غير حسية . وهى هذا القرآن الكريم المشتمل على الشريعة المحكمة . وهى معجزة غير شخصية فهى باقية إلى يوم الدين . والناس بعد محمد ﷺ يرون معجزة رأى العيان كمن شاهدوه وحضروه . وإذا كانت الأجيال كلها ترى هذه المعجزة وتقهما . فهى حجة الله القائمة عليها . فإن ضلت فإنها لاتضل عن جهالة . ولا عن نقص فى البينات . ولا عن شك فى الأمر . بل عن عمىً فى البصيرة . وتحكم فى الهوى وسيطرة للأوهام . فبقاء هذه المعجزة وخلودها . وحفظها من التحريف . والتبديل . دليل على أنها معجزة الدهر . وصوت السماء إلى كل أنسان على ظهر هذه الأرض . حتى تقوم الساعة .

وأما الأمر الثانى الذى يثبت عالمية الإسلام .

فهو تعاليم هذا الدين القويم . لأن هذه التعاليم تخاطب الفطرة الإنسانية . وتنظر إلى الإنسان نظرة واقعية . وتخدم العقل البشرى . وتؤكد المساواة بين الجميع وتكفل للناس السعادة فى الدارين بما سنته من مبادىء ونظم صالحة لكل زمان . وكل مكان تلبى حاجات المجتمعات فى جميع الأزمان والعصور وقد نشأت نظم وجدت مبادىء . ولكنها اندثرت . وأصبحت نسياً منسياً لأنها لم تحقق للمجتمع الإنسانى الاستقرار والأمان والإطمئنان . كما أن تعاليم الإسلام ظلت حية نامية على مر القرون والأحقاب ولم تكن كالقوانين الوضعية مؤقتة حامدة منبثقة عن حاجة إقليمية أو ظروف طارئة ولكنها جاءت لتأخذ بيد المجتمع البشرى قاطبة إلى سبيل العزة والحياة الحرة الكريمة .

ثانياً : الأدلة الذاتية لعالمية الدعوة الإسلامية .

أقصد بهذه الأدلة : العوامل الأساسية أو المقومات الجوهرية التى تحتوى عليها الدعوة الإسلامية .

وهذا الأسلوب فى الإستدلال يعتمد على :-

فقه الموضوع وتحليل نصوص الدعوة . وتلمس النواحى المشرقة الحيه فى مبادئها . وربطها بواقع الحياة وسنن الكون . وبيان مقدار ملأمتها - للسلوك الإنسانى فى كل زمان ومكان .

والأدلة الذاتية على عالمية الدعوة كثيرة من أهمها :-

أ :- إن الإسلام هو دين الفطرة :

ب - إنه قائم على العقل والبرهان .

جـ- هناك أصول أولية يتألف منها أى دستور علمي يوجه إلى ينابيع الحكمة وهى تنحصر فى الكليات التى أجمعت عليها كل فلسفات العالم قديماً وحديثاً . ومن أهم هذه الأصول :-

١ - دوام النظر والتفكير فى الوجود إجمالاً . وفى الكائنات التى فيه تفصيلاً

٢ - درس أحوال الأمم . والإعتبار بها . وتنوير نواميس الإجتماع من خلالها .

٣ - الاستهداء بالأعلام الإلهية المنصوبة فى الوجود . لهداية السالكين إلى الحقائق الخالصة من الشوائب .

٤ - التجرد من جميع الصيغ الوضعية ومن الهوى فى الحكم على الأشياء .

٥ - الإجتهاد فى تحصيل العلم حيث كان من عند أى إنسان فى أى زمان ومكان .

٦ - الأخذ بالأحسن من كل شىء .

٧ - العمل بمبدأ حرية البحث .

٨ – عدم الإستخزاء للتقليد .

٩ – عدم الجمود على شىء .

١٠ – الجرى على سنة التجديد . استبقاءً للتناسب بين أصله وبين كل جديد .

١١ – اعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال الذى قدره الخالق للإنسان فى هذا العالم .

١٢ – اعتبار وحدة الإنسانية وأن الناس ما انقسموا إلى أمم وشعوب وقبائل ليتخالفوا ويتناكروا ولكن ليتعارفوا ويتحابوا .

١٣ – إن باب الإجتهاد فى الدين . وفى الأحكام مفتوح . إلى يوم القيامة لا تختص به طائفة . ولا تستأثر به أسرة (١) هذه هى الأصول الأساسية فى الإسلام . وكلها : كما ترى أصول حاصلة على إجماع أهل العلم والفلسفة . فى القديم والحديث وهى مع هذا أصول خالدة قابلة للتطبيق فى كل زمان ومكان . وفى كل أمة من أمم الأرض كتب لها السمو وطول البقاء .

فهل نعجب بعد هذا البيان من قولنا : أن تعاليم الإسلام خالدة خلود النواميس الكونية وإنها تصلح لكل زمان ومكان ؟!

فالدعوة الإسلامية قانون الله للإنسان مثلها مثل أى قانون كونى أخر .

إذ هناك قانون الشمس والقمر والليل والنهار – **(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)** (٢)

وهناك قانون المياه والبحار . وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات . وهذا

---

(١) مجلة الأزهر المجلد ٩ ص ١٤٥ – ١٤٨ والدين العالمى ومنهج الدعوة إليه : عطيه صقر ص ٢٤ – ٢٥

(٢) سورة يس آية : ٤٠

ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً .(١)

وهناك قانون الظواهر الجوية كالرياح والأمطار وغيرها – وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء سقيناكموه وما أنتم له تجازنين (٢)

وكل شيء في الوجود يسير وفق قانون رباني . **(إنا كل شيء خلقناه بقدر)** (٣) – **(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها كل شيء موزون)** (٤) **(وإن من شيء إلاعندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)** (٥)

تلك بعض القوانين الإلهية التى تحكم الكون الذى يعيش فيه الإنسان . والدين هو قانون الله إلى البشر وقد تمت عموميته بالرسالة الخاتمة . ومن هنا فإن النبى ﷺ يحدد وهو فى البيئة الأولى .

والخطوة الأولى والحركة الأولى . للدعوة الإسلامية أن الإسلام دعوة الله إلى الناس كافة .

ولم تكن آمالاً يطمح إليها . فالظروف فى مكة كانت قاسية ، وليس أمام البصر العادى للناس أن يتنبئوا بعموم رسالة تحارب من الناس فى أم القرى . لو كانت دعوة محمد بن عبد الله ﷺ دعوة مصلح أو زعيم أو قائد . ما كان يمكن أن يطرح على بساط الخيال يومها . يوم ضيقها وعسرتها أنها تكون للناس كافة .

أما وهى ربانية .. أما وهى قانون الله إلى الناس كافة .. أما ويحملها نبى عارف حدود رسالته ودعوته .. فقد أعلنها : إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى

---

(١) سورة الفرقان آية : ٥٣
(٢) سورة الحجر آية : ٢٢
(٣) سور القمر آية / ٤٩
(٤) سورة الحجر آية ١٩
(٥) سورة الحجر آيه ٢١ .

الناس كافة (١) وفى هذا يقول أرنولد: لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب بل أن للعالم أجمع نصيب فيها . ولما لم يكن هناك غير إله واحد . كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة . (٢)

ثالثاً : الأدلة التاريخية لعالمية الدعوة الإسلامية .

بلغت الدعوة الإسلامية فى أواسط العهد المكى إلى مرحلة كادت فيها أن تتجمد داخل مكة ولا ينتشر الإسلام خارجها إلا قليلا . ودلل موقف الزعماء وإصرارهم على مقاومتهم . إن المعركة بينهم وبينه سوف تطول . وإن فى استمرار الدعوة على هذا الوضع تبديد لطاقات المؤمنين وتعريض . الكثير منهم للفتنة . فضلاً عن أنه جو لايقبل على الإسلام فيه إلا الأقوياء والممتازون . وهم قلة نادرة فى كل مجتمع ومن ثم فقد وجه القرآن أنظار الرسول والمؤمنين إلى أرض الله الواسعة بعيداً عن مكة – **(قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)** (٣)

ياعبادى الذين آمنو إن أرض واسعة فإياى فاعبدون (٤)

فبدأ الرسول ﷺ فى البحث عن مكان آخر غير مكة . يعيش فيه المؤمنين فى أمن وطمأنينة بعيداً عن المحنة حتى هداه الله إلى الحبشة فأمرهم بالهجرة إليها . وقال إن بها ملكاً لايظلم الناس ببلاده فتحرزوا عنده حتى يأتيكم الله بفرج منه فخرج جماعة واستخفى آخرون بإسلامهم . وكان خروجهم فى رجَب من السنة الخامسة للبعثة النبوية الشريفة . (٥)

---

(١) راجع صفحه ٣٣٧ من هذا البحث

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٤٨

(٣) سورة الزمر آية ١٠

(٤) سورة العنكبوت آية ٥٦

(٥) الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ١٩٣ والسيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٣١٥

ولكن !!!

لماذا وقع اختيار الرسول ﷺ على الحبشة بالذات لتكون دار هجرة لأصحابه ؟ وهل بعث بهم إليها دون إعداد واتفاق أو تخطيط وتنظيم مع دولتها على قبولهم وترتيب إقامتهم فيها . ؟

هل من المعقول أن يبعث الرسول بهذا العدد الكبير من المسلمين إلى بلد بعيد وفيهم مؤمنات وأطفال من أكرم بيوت قريش دون أن يضمن لهم فيها حياة هادئة ومطمئنة ودون أن يكون واثقاً من أنهم لن يتعرضوا لمحنة من لون جديد قد تكون أقسى من محنة مكة ؟

الراجح الذى تطمئن له النفس أنه قد أعد لهجرة أصحابه إعداداً – كاملاً وتنظيماً دقيقاً . وتخطيطاً محكماً قبل أن يخرجوا من مكة . حتى إذا وصلوا إلى الحبشة استقبلهم ملكها أكرم استقبال ووجدوا أنه قد أعد لهم وسائل لإيوائهم ومعيشتهم وحمايتهم على خيروجه .

ولا شك أن اختيار الرسول للحبشة لتكون داراً لهجرة المؤمنين كان له علاقة وثيقة بوحدة الدين التى تربطهم بأهل الكتاب والتى جعلها – القرآن أصلاً من أصول العقيدة . كما كان له علاقة بشخصية النجاشى وعقيدته فقد كان من الطائفة التى لا تقول بألوهية عيسى عليه السلام :

وببنوته لله تعالى . بل كان يؤمن بأنه بشر برسول يأتى من بعده اسمه أحمد . فلما سمع ببعثة الرسول بمكة وقد كانت الصلة التجارية مستمرة بين البلدين بدأ فى الاتصال به وبعث الرسول ﷺ من يدعوه إلى الإسلام أو يفاوضه فى هجرة أصحابه إلى بلده وقد ذكرابن هشام فى سيرته (١) رواية لها مدلولها فى هذا المقام قال : قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك

---

(١) جـ ١ ص ٣٦٩

من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلى عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبوجهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب بعثكم من ورائكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطل مجالسكم عنده حتى فرقتم دينكم وصدقتموه بما قال مانعلم ركباً أحمق منكم .

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه . لم نأل أنفسنا خيراً .

وفى هذا الوفد نزلت الآيات (**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به دانه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين**) (١) وقد ذكر بن إسحاق قوله : وقد سألت الزهرى عن هؤلاء الآيات فيمن أنزلن ؟

فقال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهى نزلن فى النجاشى وأصحابه (٢) ومع أن كتب السيرة لم تربط بين هذا الوفد . وهجرة الحبشة إلا أن الظاهر أن قدومه إلى مكة كان له صلة وثيقة بهذه الهجرة وأنه جاء نتيجة اتصال الرسول ﷺ بالنجاشى والاتفاق معه على إيواء المهاجرين ثم إن هجرة الحبشه كانت على دفعتين :

---

(١) سورة القصص آية ٥٢ - ٥٥ .

(٢) الجهاد فى الإسلام : محمد شديد ص ٤٦ ط الشعب بمصر ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

الدفعة الأولى : من قلة فيها عثمان بن عفان وزوجته بنت رسول الله ﷺ ولم تمكث بالحبشة إلا مدة قصيرة ثم عادت إلى مكة والغالب أنها كانت وفداً بعث به الرسول ﷺ لمقابلة النجاشى ويطمئن منه على استعداده لقبول المهاجرين .

ثم عاد الوفد إلى رسول الله ﷺ بما تم الإتفاق عليه وهاجر المسلمين بعد ذلك على هذا الأساس (١)

ونتسائل هنا عن الباعث الحقيقى لهذه الهجرة هل كان لمجرد الفرار من الأذى والعذاب ؟

إن الذين هاجروا جميعاً إلى الحبشة كانوا جمُيعاً من ذوى القوة والمنعة الذين كان لهم من عصبتهم ما يدفع الأذى عنهم إلى حد كبير أما الموالى المستضعفون الذين كانوا يتلقون معظم التعذيب فلم يهاجر منهم أحد . وظلوا فى مكة حتى نهاية العهد . وقد كانوا أحق بالهجرة والنجاة .

فلماذا هاجر الأقوياء وبقى المستضعفون إن كان الفرار هو الهدف من الهجرة ؟ ولماذ هاجر نساء من بين أشراف قريش ولم تتعرض إحداهن لأذى أو فتنة ؟ ولماذا هاجر أبوموسى الأشعرى ومؤمنوا اليمن ولحقوا بإخوانهم بالحبشة وقد كانوا بعيداً عن مكان المعركة . ولم يثبت أنهم تعرضوا لمحنة . أو وقع عليهم تعذيب ؟ ولماذا بقى معظم المهاجرين بالحبشة ومنهم جعفر حتى السنة السابعة من الهجرة بعد أن أصبح للإسلام دولة قوية بالمدينة وقويت فيها شوكة المسلمين

١ - الواقع أن هذه الهجرة لم تكن لمجرد الفرار والنجاة وإنما كانت أولى محاولات الرسول المتكررة التى بذلها فى البحث عن مكان آمن وعن قاعدة جديدة يتجمع فيها المؤمنون وتصلح مركزاً جديداً لدعوته يقيم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٩٤ والسيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٣٧٠

فيها مجتمعه ودولته

٢ - ولعل التفسير المعقول لبقاء عدد كبير من المهاجرين بالحبشة حتى السنة السابعة من الهجرة أن الرسول كان يهدف إلى إبقاء عدد كبير من المؤمنين بعيداً عما يتعرض له أصحابه فى المدينة نتيجة حرب المشركين واليهود . وأراد أن يحتفظ بهذا العدد فى الحبشة رصيداً سالماً مؤمناً مراقباً لما تسفر عنه الأحداث وقد كانت عودتهم إلى المدينة فعلاً بعد عهد الحديبية ، أى بعد انتهاء الحرب بين المسلمين ومشركى قريش وبعد الانتهاء من أمر اليهود (١)

٣ - وفى هجرة سيدنا جعفر بن أبى طالب فى المرة الأولى دليل واضح على أن الهجرة أريد منها كذلك أن يسمع الناس عن الإسلام . بالإضافة إلى بعد المسلمين عن مواطن الأذى . فقد كانت تلك جهوداً فى تبليغ الدعوة على صعيدها العالمى الطبيعى .

٤ - بل إن محاولة قريش استرداد المهاجرين هو نفسه دليل على ما أدركوه من إمكان انتشار الإسلام بهذه الهجرة فى الحبشة وخوفهم من بناء قاعدة إسلامية تناهض القرشيين فى مكة وإلا فهجرة المسلمين من مكة كانت راحة لهم من هم تكاثرهم فى داخل أم القرى .

غير أن الأمرلم يكن فى خاطرهم مسألة راحة من أشخاص بقدر ما هو سد الطريق على الدعوة حتى لا تنتشر وتنمو وتفشو . ولقد سقط فى يد قريش عندما رجع رسولاها بخفى البعير فى يوم مطير . وقرروا أن يتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب .

وفى هذا يقول الإمام بن القيم رضى الله عنه - ثم قال - النجاشى

---

(١) السابق ص ٤٨ .

للرسولين لو أعطيتموني ديراً من ذهب أو يقول جبلاً من ذهب ما أسلمتهم إليكما . ثم أمر فردت عليهما هداياهما ورجعا مقبوحين . فلما رأت قريش أمر رسول ﷺ يعلو والأمور تتزايد أجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني عبد المطلب وبني عبد مناف ألا يبايعوهم ولا يناكحوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم رسول ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة (١) كما يقول إبن إسحاق فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ كلما نزلوا بلداً أصابوا به أمنا وقراراً راوأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل الإسلام يفشو في القبائل اجتمعوا وأئتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون على بني عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحو هم . ولا يبيعوهم شئياً ولا يبتاعوا منهم فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك . ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم (٢) وهذه النصوص فيها دلاله واضحة على ربط قريش بين ثلاثة أحداث هامة في تاريخ الدعوة الإسلامية وهي :-

١ - استجابة النجاشي للإسلام ورعايته للمهاجرين لديه .

٢ - إسلام سيدنا حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما

٣ - كتابة صحيفة المقاطعة للرسول ﷺ أو لكل قبيلته حتى يسلموه لهم .

وعلى هذا فالتفسير المعقول لهجرة سيدنا جعفر بن أبي طالب ومن معه بالإضافة إلى بعد المسلمين عن الأذى هو :-

إيصال الدعوة إلى أهل الحبشة وقد أسلم النجاشي بمجرد أن سمع عرض الإسلام من سيدنا جعفر رضي الله عنه .

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٤٦ ط المطبعة المصرية بدون تاريخ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٣٣٩ .

وقد ثار على النجاشي قومه بسبب إسلامه فأرسل إلى سيدنا جعفر وأصحابه وهيألهم سفناً . وقال : اركبوا فيها . وكونوا كما أنتم . فإن هزمت فامضوا . حتى تلحقوا بحيث شئتم . وإن ظفرت فاثبتوا ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه . هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله . وكلمته ألقاها إلى مريم . ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة .

وصفوا له . فقال : يامعشر الحبشة ألست أحق الناس بكم ؟

قالوا بلى . قال : فكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟ قالوا خير سيرة قال فما لكم ؟ قالوا : مارقة ديننا وزعمت أن عيسى عبده قال فما تقولون أنتم فى عيسى ؟

قالوا : نقول هو ابن الله فقال النجاشي . ووضع يده على صدره على قبائه . هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا شيئاً .

وإنما يعنى ما كتب فرضوا وانصرفوا (١) . فبلغ ذلك النبى ﷺ فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له . (٢)

وهكذا توافرت وتواترت الأدلة النقلية والعقلية ممثلة فى الآيات القرآنية المكية والمدنية . والسنة النبوية الشريفة . والأدلة الذاتية لتعاليم الإسلام . والأدلة التاريجية الصحيحة على أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية . لكل إنسان فى كل زمان ومكان . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) هذا عمل يدل على اهتمام النجاشي بأمر المسلمين المهاجرين إلى الحبشة . وأنه لم يكن مجرد رئيس دوله قبل جماعة من اللاجئين إلى دولته إنما كان مؤمنا بعنى بسلامه إخوانه المسلمين فضلا عن أن الرسول ﷺ لما أراد أن يتزوج السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان - إحدى المهاجرات بعث إلى النجاشي مع أحد أصحابه يوكله فى هذا الزواج . وقد قام بعقد العقد ودفع المهر نيابة عن الرسول وأولم للمؤمنين وليمة كبيرة . وأهدى إليهم الهدايا - راجع كتاب الجهاد فى الإسلام : محمد شديد ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

الفهـــــرس

الموضوعات	الصفحه
الدعوة والسيرة	٣
بدايات الدعوة الإسلامية	
المبحث الأول	٦
البيئة التى ظهرت فيها الدعوة الإسلامية	٦
الحالة العامة فى الممالك المجاورة للجزيرة العربية :-	١٥
لماذا كانت الدعوة فى الجزيرة العربية دون سواها من الممالك الأخرى :-	١٨
لماذا كانت الدعوة فى قريش دون سائر القبائل :-	٢٤
المبحث الثانى	٢٨
الداعية الأول فى الإسلام :-	٢٨
مولده ونشأته صلى الله عليه وسلم :-	٣١
المبحث الثالث	٥١
مراحل الدعوة الإسلامية :-	٥١
المرحلة الأولى :	٥١
الدعوة السرية	٥١
دار الأرقم ابن الارقم وأهميتها :-	٦٢
الحكمة من السرية فى هذه المرحلة :-	٦٦
المرحلة الثانية :	٦٨
دعوة الأهل والأقارب ، وأنذر عشيرتك الأقربين	٦٨
زاد للداعية :-	٧٥
لماذ بدأت الدعوة أولاً بالعشيرة الأقربين ؟!	٧٦
المرحلة الثالثة :	٧٨

الفهـــــــرس

الموضوعات	الموضوعات
دعوة العرب عامه شرقاً وغرباً ، لتنذر أم القرى ومن حولها :-	٧٨
ذهابه ﷺ إلى الطائف :-	٧٩
مايستفاد من دعوتة ﷺ فى الطائف	٨٢
عودته من الطائف إلى مكة :-	٨٣
دعوتة للقبائل والوفود :-	٨٥
لقاء الأنصار ومبايعتهم :-	٩٤
لقاء العقبة الأول :-	٩٤
لقاء العقبة الثانى :-	٩٦
لقاء العقبة الثالث :-	٩٧
مايستفاد من هذه البيعات	١٠١
المرحلة الرابعة :	١٠٥
دعوة البشرية كلها : قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا :-	١٠٥
الأدلة على عالمية الدعوة :-	١٠٥
أولا : الأدلة النقلية :-	١٠٦
القرآن الكريم :-	١٠٦
السنه الشريفة :-	١١٠
تعاليم الإسلام :-	١١٣
ثانيا : الأدلة الذاتية لعالمية الدعوة الإسلامية :-	١١٤
ثالثا : الأدلة التاريخية لعالمية الدعوة الإسلامية :-	١١٨
الفهرس	١٢٦

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٦٢٩٩ يناير ١٩٩٨
مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا
أمام فرع جامعة الأزهر